النجاح

لا يكاد امرؤ يخوض معترك الحياة حتى يوجه عقله الباطن نحو هدف من الاهداف قد لا يكون رآه رأي العين ، او اعمل فيه الروية .

ان المجد على مختلف انواعه ينحصر في النجاح — النجاح الذي يحرزه المرء بسعيه ودأبه . وضروب المجد متعددة ، فلكل صناعة او حرفة مجدها . على ان مجد الطبيب ليس كمجد المحامي ، ولا مجد الشاعر كمجد المهندس ، ولا مجد العالم كمجد قائد الجيش .

وانه لمن الخطل في الرأي التوكل على الصدف او الظروف في احراز النجاح . فالصدف تساعد وتوآتي ، لكنها لا توجد شيئاً من لاشيء ، والنجاح هو ثمرة السعي والدأب والاخلاص . وايما رجل اخلص لمهنته ، لا عملا بالواجب فحسب ، بل حباً بهذه المهنة ايضاً ورغبة في اتقانها ، يؤآتيه النجاح ، ومن واتاه النجاح احرز مجداً .

وليس هذ النجاح وليد يوم ، بل هو نتيجة المثابرة على التجويد بعزيمة ثابتة ومحبة خالصة ، تسهلان المصاعب وتمهدان الطريق . وهكذا فنحن لا نيأس لفشل ، ولا نقف عند صدمة ، ولكن نعيد الكرة مرة بعد مرة ، متحاشين اسباب الفشل الاول .

يحكى ان اديباً عربياً معروفاً هبط ، قبل الحرب الماضية ، بيروت ، كي يلقي محاضرة في جامعتها الاميركية . وشاء الاديب ان يعرف مكانته في حاضرة العلم والادب . فدخل على كتبي وساله قائلا :

« أين يمكنني قضاء سهرة مفيدة ؟ »

فاجابه الكتبي :

« قرأت في الصحف ان فلانا سيلقي هذا المساء محاضرة في الجامعة الاميركية . ولكني اؤكد انك ثمة ستسأم عيشك . فاذا عملت بنصيحتي ذهبت الى قهوة كوكب الشرق حيث تشاهد رقصاً عاريا ، وتسمع «طقاطيق» مفرحة ، وهكذا لا تخسر سهرتك » .

ولا شك في ان هذه « النصيحة » لم تثبط من همة اديبنا الكبير ، والا لم يبتسم لها ، ثم يقصها على معارفه وخلانه .

اما الكفاية فجوهر واساس ، لكنها ليست كل شيء ، اذ هناك فضائل اخرى ينبغي ان يتحلى المرء بها . ولو ان لافكارنا واعمالنا اجلا ، كما لاعمارنا ، لما كاف امرؤ نفسه مشقة الدأب والجهد . فالناس جميعا ، على اختلاف طبقاتهم وامزجتهم ، مسوقون بحب البقاء الى ترك أثر في الحياة . وكلما عظمت هذه المحبة كانت ادعى الى شرف النفس ، ونبل المقصد .

البر اديب

ادب الحرب

بقلم ميشال ابو شهلا
صاحب جريدة الجمهور

لقد خيل الينا، غداة دوى نفير الحرب، انه حيل بيننـا وبين الادب، وان صناعة الادب في زمن الحرب تشبه حفلات الطرب في دار محزون، فهي شيء تميل عنه النفس وتمجه الاذواق ويخرج عن حد الزي الرائج.

لذلك أحست الاوساط الادبية، فور اندلاع الحرب، بكساد يسود بضاعتها، وسكون يشيع في مجالسها، وتقلص يصيب اقلامها، وجمود يتزل بقرائحها. وليس كالفكرة الخاطئة في ساعة السريان، ولا أعدى من الرأي الفاسد اذا اطلق في جو مسترهل.

على ان هـذا الاحساس المترنح الذي ولد في ظلال المدافع والطيـارات وعلى وهج نارهـا وبخارها، ونما بين اشباح المخـاوف والمخـاطر، وترهّف تحت مطارق الصراع الدامي، لم يلبث ان اعيد الى روعه وتبدد ذهوله، فاذا بنـا نسترد يقظة الادب التي مـلأت حياتنا قبل الحرب تغـاريد عذبة، وفيأتنا بدواليها المسكرة.

فاستقبلنا اليقظة كأنهـا نار التدفئة او كأنها مشاعل البشرى تتداولها الايدي فوق قمم الجبـال لتحيي عائداً او تستقبل جديداً.

ولقد كان خطأ فادحاً ان نعتقد بان جو الحرب انمـا يصلح لصحف الاخبار، وان الادب يجب ان يستكن بانتظار النهاية.

فهل يعقل ان تستكن نفس الاديب في جو كل مـا فيه صاخب؟

وهل يستطيع الاديب سكوتاً وكل ما حوله ينـاديه الى العمل ويلهبه ليتقد شرارات متطايرة في فضاء الحياة؟

أيجمد الاديب في زمن تتطاحن فيه الامم وتتكالب المطامع وتتزاحم الانسانية في طريق التنازع؟

واذا سكت الاديب وكسر قلمه، فمن يصور لنـا مصارع الامم الصغيرة ونحن واحدة منها؟

من يصور لنا هذه الشهور والايام التي نعيشها بين تيـارات مرسلة من الآمال والآلام، وبين نزوات مختلفة من نفس حساسة تتراوح بين الحماسة والشجاعة والجبن واللامبالاة، ثم تنكفيء على ذاتها، فتحس الضعف والخور امام مادية العالم القوي؟

من لنا غير الاديب يلهب في نفوسنا شعور الحق بالحيـاة، ويستلهم الحرب معـاني البطولة والقوة، يرسمها صوراً لابنـاء جيله ويوزعها غذاء لقرائه؟

لقد كان ادبنا الحديث بحاجة الى شيء يصقل فيه النزعة الى القوة، ويلونه بالوان الدم والجهـاد وتضحية الفرد للمجموع والجماعات للامـة، ويرهف الاذان لموسيقى الحرب والحماسة الوطنية.

ان نفوسنـا لفي عطش الى الى ادب القوة، بعـد ان ملأنا الكتب بادب الغرام والدموع والهجرة والعودة ومهازل النزاع الصغير ومآسي الحيـاة الهزيلة. ان في هدير الطائرة وقصف المدفع وانفجار القذيفة وانهيار المنازل وتناثر الاشلاء، كما في صراع الاحقاد والاطماع مجالا ذا سعة لادب جديد يستوحي من الهدم ليبني، ومن الموت ليولد، ومن الدم ليصور، فهو ادب القوة والانشاء والاخلاص.

ميشال ابو شهلا

صفحات من المفكرة الريفية

بقلم امين نخله

«المفكرة الريفية، لفؤاد افندي، كتاب لم ينشر بالطبع، وهو يدور على موضوع هذه الصفحات التي تحملها (الاديب) الى قرائها اليوم ـ والكتاب لامين نخله، وان كان يحمل في صدره انه لفؤاد افندي:

درب الريف

«من باب: على درب الريف»

الدرب في الريف غير الدرب في المدينة! فهي التي تنهض من وهدة الى ربوة، وتدور خلف شجرة، وتعرج على عين ماء، وتتوقف في ظل حائط، وتنطرح على باب بيت – تمشي على هواها، والدرب في المدينة تمشي في خط مستقيم...

والدرب في الريف بيضاء تتلوى في خضرة، وهي في المدينة سوداء، فاحمة، يعوزها الشجر، على الجانبين، لتأنس بعض الانس، فوق ذلك السواد الطويل!

وعلى دروب الريف تعرف عابر السبيل من وقع خطوه، وعلى رصفات الشوارع تتشابه الاقدام، جميعاً، في الحركة.

وكل درب في الريف قديم. فيقال عندنا: فلان حوّل دربه عنا – يعنون انه غيّر عهده. او يقولون فلان حوّل الدرب الى جهة كذا– يعنون انه غير معالم الحد، وخرج على القانون.. لذلك تجد الدروب الريفية محطات للتذكر: فها هنا زفت عروس وهناك خرجوا بنعش، وهنالك وقفوا، ولوحوا بالمناديل..

خيمة البركة

«من باب: على ذرب الريف»

في الريف ظلان يحلو لظهر الأرض حملها: ظل الشجرة، وظل الفلاح. يدل الاول على ان التربة جيدة، ويدل الآخر على انها تعطي، فلا ينبغي ان تترك. فكأن ظل الشجرة وفاء من الارض للفلاح، وكأن ظل الفلاح وفاء منه للارض!

والشجرة في الغابة كالرجل في الشارع: لها الف نظر. فاما حين تنفرد في حقل، او على رابية، او عند منعطف طريق؛ فهي حينئذ ملعب الريح؛ وملتقى الطير؛ ومائدته؛ ومرقص مناقيره بين الورق والثمر..

فيا خيمة البركة: هنيئاً لنا بانفرادك!!

العلاقة الريفية

«من باب: اخبار ريفية»

تقول للرجل من اهل الريف: كيف بيتك؟ فيقول: علّية تنهض بين ارياح الاربع! فتعجب له، وهو المقيم بذلك السكن الوادع، لا يأكل الطيب؛ ولا يلبس الفاخر؛ ولا يجلس على الوطيْ؛ كيف انه لا يتجافى عن مشقة؛ ولا يتأبه من قناعة!

ان الديار؛ وبقاع المثوى؛ وتربة الصبا؛ هي التي تحضن الاذواق والانساب والطبائع؛ فضلا عن التاريخ المحلي؛ الذي يحفظ في نشيج ساقية اكثر مما يصان في جوف كتاب. ففي هذه المروج الريفية؛ وكأنها من لجج؛ وفي هذه الاشجار؛ وكأنها من زمرد؛ يعيش واحدهم على الحضر وطول اللبث تعلقاً بقبر دارس؛ مثلا؛ لا بشجرة غيناء؛ تقلق في الريح...

امين نخله في دمشق ربيع ١٩٢٩ من مجموعة رأفت الخاصة

الى اصحاب الذوق البري

«من باب اخبار ريفية»

سقى الله المراعي والحشيش؛ وايامنا في الجبل بالحمر الفارهة والبراذين الخفيفة؛ وزماننا بارخاء فضل الرّسن.. فدابة اليوم ترعى في لحظة؛ وتشبع في لحظة.. وقفة عند مطفرة البنزين؛ ثم تنطلق بك؛ لا تعقرها بزذعة؛ ولا يمضها سفر في نهار اوليل، بينما انت منها على ثنية الوداع اذا بك في ديار الاحبة على امان الله!

فلله زمن الميكانيك! لله هذا الزمن!! كرة الارض صغر حجمها، والجهات دنت، والمسافات قربت، وتماوج الناس بعضهم ببعض إلفة. وكيف الفرار من هذا التواصل الجديد؟ كيف لمن يريد ان لا يأتلف ولا ينغمس ولا يصادم الاكتاف ان ينكمش عن الناس ويأوي الى معاهد نفسه؟!

يقال في النبات: بري، لخلاف البستاني، ويقال في الحيوان: بري، لخلاف الاهلي –فيا ذوي الذوق البري من الناس: أين تراكم تعتزلون اليوم؟

الريف في المدينة

التفاحة، عند بائع الفاكهة تبكي على امها، وتذبل على ذكر ايامها في وطن التفاح! وربما اطلت من قفة القصب بخدهـا الاحمر وهي تكاد تقول: ارحموني من نهش وعض!

اما بواكير التفاح فهيهات ان يجد بائعها مشترياً يغرز اسنانه في خدود اطفال الثمر ولا يبالي ..

وعند بائع الزهر تطالعك الوجوه المدورة من كل لون ونوع كأنها عرفتك! او كأنها حسبتك قادماً من الجبل لساعتك. فتكاد تسألك عن شقائقها في بعض الوهاد وتغمزك في ذلك باطراف عيونها — مخافة ان يراها صاحب الدكان!

ثم ينكمش قلبك على تلك الزهرات المقطوفة وقد فارقها الشذا واقامت بآنية الغربة تنتظر رحمة الله ..

اما العنب في دكان الفاكهة فهو ظروف الحلاوة يدبق وينضح ويكاد يقطر الى الارض — فاياك ان تمسه يلصق باصابعك. اصبح العنب في المدينة لا يصح ان يفضى اليه باليد من غير حائل، وقد كان في الريف وهو حبوب الرقة التي تجري مع الريق!

واما البطيخ الجبلي فيعجبني منه عناد رؤوسه في زاوية الدكان ... والقثاء الطويل منبطح في الارض، من الغيظ، على فرقة عصي النواطير!

واللوز الاخضر — وهو من جلب الجبل، كأنه حبوب ربيعية، توزع في المدينة كما توزع البركة ..

والديك، وهو فحل المصطبة، اصبح في قفة، عند بائع الدجاج! ومن ذا الذي يصدق ان الصبح، في الجبل، صار يطلع بلا احتياج الى صياحه؟ وأين ميزة التيقظ؟ أين عين الديك؟ وصيحة الديك، يا باعة الخير؟!.

ويا سجين القفة: ان صديقتك، في الجبل (الدجاجة البيضاء)، حرام عليها صحن الدار، من بعدك!

وعند الصيدلي (يختبئ.... البنفسج، في بعض الاوعية — لا يترك شيمته الحلوة، وان اصبح في بضاعة العافية!! فهو (يشفي البطون من الكظة، ويدخل عليها الانتعاش).

فيا عجباً لذلك المتواضع! يقيم بين قناني الزجاج، فلا يضرب برجله من الانتفاخ والتعظم، على انه دواء العيون، وهو رطب، ودواء البطون، وهو يابس ...

والعصفور، بطل الحرية ومقلق الغصن، اصبح في القفص، عند بائع العصافير! هو ابن الجبل وبلاد العالية، وقع في اليد! يقال في المثل: (صيحة في واد)، وفي هذا المقام يصح تغيير المثل — كرامة لعيني العصفور: (صيحة في شارع)...

وأين الحرية التي ترجح عند العصفور، بالاهل والروح؟! اين التطويف ببلاد الجبل، والسقيا من ماء العيون...

الطبيعة الخلائية

«من باب: بين الريف والمدينة»

اذا كانت المدينة لليوم القائم، والجديد المتتابع، فالريف (وهو مناطق الصمت، واقطار السكون) للماضي! ها هنا تقف على كل دمنة، وتبكي من كل ذكرى، وتقول في كل اثر: كان ذلك والدار جامعة، والملتقى كثب... فالريف، اذن، باصداء الماضي وتذكاراته، حرم مهيب — وهو بذا اشهى من ظنك به ماثلا في الحلي والزخرف! فاذا تقضى زمن المطر، وجاء الصيف قصد الناس بلاد الجبل افواجاً، ينزلون فناء الطبيعة القديم، ويخلعون فيه ثوب الزمن الجاري، وقد ضيق عليهم، في المدينة، تسعة اشهر.

وان رأس السبب، في التذاذك بالمعالم الريفية، وهرعك اليها، من المدينة، ملء فروجك، هو ليس هذه الهندسة الريفية الحرة — لا قيام البيوت والشجر على هوى الباني والغارس، ولا ذهاب السكك على مشتهاك، بين افواه الاودية وظهور الجنان. بل رأس السبب في ذلك هو هذه الطبيعة الخلائية التي تحس معها انك شريك لها، من قديم، في مخازن النعم — ولطالما عصمتك من فقر، واعاذتك من هوان، ورجحت في قلبك ايثار الحرية...

امين نخله في بيروت ربيع ١٩٤٢ – من مجموعة رأفت الخاصة.



اغنية العين

« من باب : اغاني ريفية »

يا نعمة لا تتوقف ، ونغمة لا تنقطع : عجباً ليدك القادرة في الليف والخشب ، وفي مهجة الحجر ! ويا زجاجاً صفا ، وفضة سالت — لا غرف ، ولا خوض ، بل قلة ذات بركة ، تفعل فعلها الاخضر في باب الخصب العميم — : في مدك استبحر الريف !

الراديو

« من باب : مقاطع تمثيلية ، تجري حوادثها في الريف »

(فلاحان يتحادثان) الاول — تمنيت على الله ان تصبح علبة الراديو ، وهي صندوق فصاحة ! وذلك بان لا تنفتح إلا على اصوات طبيعية ، خالصة ، قد صفت من كل تدبر . فمن شلال يجلجل في بعض الوهاد ، الى صهريج يبلع الموج ، وشجرة تخفق ، ومطرة تصب ، وديك يصيح على الغيطان ...

الفلاح الآخر — اما انا فاخالفك في هذا ، واتمنى ان تظل (علبة الصياح...) علبة صياح ابداً ! أفلا يكفي الادب ، من قديم ، مزاحمة التصوير والنقش والموسيقى ، حتى تجيئه بهذا المنافس الجديد ؟! فاذا جلست الى الراديو ، وغمزت زره ، واحسست ان كرة الارض تزلق من تحت اصابعك ، فاشكر الله ، عن القلم ، على ان لذة الراديو تقف عند ذلك القدر ، لا غير ..

عصر الثرثرة الكبير

(الفلاحان نفسهما) الاول — يظهر يا جار الخير ، ان قد اصبح بين الالفاظ والاشياء ، في هذا الوقت ، هوة من البعاد . على حين انه ينبغي ان تكون علاقة اللفظة بالشيء اشبه شيء بعلاقة القطعة من النقد بقيمتها ، والا وقع (الافلاس اللفظي) ، وصار الشيء الواحد يقابل آحاد من الالفاظ ! وهذه حال لها في ظني اسباب ودواعي . فنحن من زماننا في عصر الثرثرة الكبير : جرائد ، ومسارح ، وتلفون وسينما تنطق ، ومجالس برلمان ، وفي الآخر هذا الراديو الذي لا يكل لسانه . فاذا دامت الحال هكذا جاء عن قريب يوم يصبح فيه الادب وهو صناعة وضع اللفظ في مواضعه !!

الثاني — تتعب رأسك بهذه الهموم حيث تستطيع ان تطرحها عنك ! فما تراه يهمك من كل هذا ، ما دام يقال لنبع الماء الذي في جوار بيتك : اوقيانوس محيط ، وانت حين تشاء تزج فيه رجلك الى الركبة ؟ !!

قصائد ريفية

« غزل »

شرط اللذة في السحر ، والقمر طالع يطمس السروج : ان يكون في النافذة اثنان ، انت والآخر ! اما ان تكون وحدك ، فذاك من ذهاب النوم على القمر — لذا تراني اسد نافذتي كل ليلة ..

عنقود العنب

خذ بيدك ، في شهر ايلول ، عنقوداً من العنب ، وارفعه الى عينيك ، وانظر من خلال الشفوف ، الى نور الشمس ، وتأمل ! لا علبة الجوهري احلى ، ولا خزانة البخيل اشهى من عنقود !!

ففي عنقود واحد من العنب ، ما يملأ العين من السعادة ...

قصيدة في مدح المطر

طوفان الخير ، وهطل البركة : جعلت الريف احلى من الحواشي في ديوان شاعر اندلسي .

مطبوع اشهر الطبع ، بنفقة مستشرق من (ليدن) ... نقش البجاد، ونقط الدبابيج ، يا مطر الفضة !!

دارة القمر تنبيء بتقدمك ، ومهاب الرياح تنفخ البشائر قبل وصولك ، وتفتح الارض بين يديك قلبها ، لتلقي انت فيه سر الخصب!

ويا حبذا فجأة الشؤبوب للنعجة ، عند سرادق الشجر ، وحبذا اغنية النقطة في طرف الورقة وعلى زجاج النافذة ...

ويا ايها المطر ! كأن صوتك من وقوع الدنانير في الارض ، فهو الذي لا يسمع الا عنـد الخير ! بات النسيم لا يتنهد — شفي من علته .. واصبح العود خفيفاً ، لامعاً ، راقص الورق ، فهو اطرب من مزمار . ولو ان تروي الجوانح يكون من الماء ، لخرج كل محترق القلب واله ، يكشف رأسه تعرضاً لهطلك .

وبعد هذا ، فقف عن الهطل ، يا مطر — نجنا من الطوفان ...

اغزال ريفية

(ملتقطة من فم شاعر ريفي دوار)

ألف رغيف ، عند خباز الضيعة ، يدخل النار ، وألف رغيف يطلع منها . ولقد مررت البـارحة بالخباز ، فلا والله ما رأيت رغيفاً قد احمر كخدك ، ولا رغيفاً قد احترق كقلبي!

يوم قفلت راجعاً من المرج ، وقد تركت وراءك ذلك البساط الاخضر الذي حركته قدمـاك ، نهضت زواياه الاربع، تتلفت وتسأل عنك ...

اياك ان تذهب بعيداً عني، فبلاد الجبل واسعة ! تضيع وهيهات ان يدلني اليك من رآك، ولو اعطيته هذه الدنيا...

واياك ان تخرج في الشمس ، اخاف على ظلك ان يقع في الارض !

واياك ان تقف في حقل جارنا ، الى جانب السروة العالية ، مخافة ان يدعي انك من شجراته !

مطالعات ريفية



ان الشجرة التي تصطفق في الريح — وقد انقطع عارض المطر ، ورقعت النقطة ، وعادت الارض خضراء بآثار الربيع — لا بد لجزورها من ان تتحرك ، وان تنشر الطراءة في باطن الثرى...

وهكذا حشرات الارض يكون لهـا ، وهي في منازلها العميقة ، ان تجد النعيم على روض مقلوب !

وفي الشجر الذي التقى ونور الشمس ، بجوار الرابية ، اسعد ملتقى — وقـد جلت انت من ذلك منظر العين ، وكررت النظر في حقائق الخضرة — تحس بروح الريف !! فجمال يملكه الله وحده ، ودوام لا ينقطع، وخير لا يفنى...

ثم تنظر حولك ، فكأنما اصابع خفية قد اومأت اليك ، تريد منك في حضرة الجمال ، ان تتحرك ! فلا تصدق . لا اصابع تومي، اليك ، ولا احد يسألك ان ترقص من فرط الطرب...

والاوز ! لله ما اطرب اصواتها النحاسية على الماء ، — فقل في ذلك : ابواق عسكرية ينفخ فيها من لا يعرف النغم ! ففي الريف ، ابواق للعسكر ، ولا عسكر ، والحمد لله ...

امثال ريفية

(الصنيع الفني)

للقول ان ما يقع في الحياة يقع في الادب :

— هيهات ، لا يسقط الطير من الجو مشوياً !

او تقول :

— يضرب المعول في الارض الف مرة ، قبل ان تخرج نبتة خضراء .

(الاجير في الادب)

للقول ان ما يقع في الادب ، لا يقع في الحياة :

— الهر لا يأكل آباءه ، بل يأكل بنيه !

بذور ريفية
« الزرع في المدينة »

ولد الفن يوم قالت الحية لحواء – : « أطيب اكلة في الفردوس : التفاحة »، بدلا من ان تقول لها : « كلي التفاحة » . . .

قضية اللفظ والمعنى

تسأل الزهرة الشذا – : « مابالك بعيداً عني ؟ » فيقول لها : « انا في قلبك ! »

« الغموض »

طريق السهولة في الادب تؤدي الى الوضوح .
أي الى اوخم العواقب !

« توزيع القسط بين المعنى والمبنى »

يتعب اللفظ حيث يستريح المعنى . . .
جماعة القاهرة يظنون ان الصدق في الفن معناه قول الحقيقة !

« قضية حفظ النصاب »

قضية التوفيق بين الجملة والتفاصيل هي شغل « فاليري » الشاغل . ولذلك يقال في اوروبة اليوم، ان « جيرالدي » اوضح من « فاليري » .

من التعريف بقرية فؤاد افندي

.. ثم هات اصابعك اعد عليها المحاسن مما حولي :

اسم ضيعتنا – فتكاد تسمع جلبة النهر حين يلفظ ! . والماء عندنا ، في بلاد الجبل ، اوفر اثراً من الضياء ، وابقى شاهداً . فاذا جاء نيسان ، بعد الدجن ، وسقيط الامطار ، احس اهل الريف ان زماناً اخضر اللون ، نسيته عيونهم ثمانية اشهر ، قد اقبل من وراء البيوت ، فهو يدخل عليهم ، من النوافذ ، ومن شقوق الجدران ..

النهر – (ذو الكرم الدافق) يسقي على الجانبين، ولا يبخل بقطرة .

درب النهر – تنحدر الفلاحات ، في عشايا الصيف ، بالجرار الحمر ، ويسلن فوجاً غب فوج ، فتغدو الدرب نهراً للاحاديث والغبطة، يصب من الضيعة الى الوادي .. (الدرب التي بين البيوت) – فهاهنا تنقل الاقدام ، الذ النقل، في اثر بعض الخطوات .

خيمة الناطور (في رأس الجبل) فتلتقي عندها العيون في كل حقل .

ريح الجبل – وهي التي تهبط من فوق، تكنس ما بين البيوت .

الحمام الابيض – الذي يصفق في جو ازرق .

مزار الشيخ عز الدين (على الربوة) – تسعى اليه المصابيح في ليالي الجمع . فالشيخ ولي الله ، آمن به وباليوم الآخر ، فاعتزل الناس واطرح الاباطيل . وهو لم يذق الخمر عمره ، فلما مات دفن في وسط الكرم ، على رأس الربوة !

كنيسة مار جرجس – الذي يحبه القرويون كثيراً ، ويحلفون برأس حصانه .

عرائش (السقي) – التي يغنيها اهل الزجل في المواسم ، فتتدلى فيها العناقيد والقصائد !
– العناقيد، يومئذ ..

خضرة السنديان – التي لا اسم للونها في (القاموس) !

الجمر الاحمر – فبين يدينا ، في المواقد ، في ايام الشتاء ، ألف خد يلتمع .

ثياب الرعيان ، ساعة يرجع واحدهم ، في عشية الصيف ، بقطيع الضأن – فتعبق من عباءته روائح المراعي والجبال البعيدة !
– قصص الرعيان ، هؤلاء ..

الطواحين التي تهدر بين الاشجار – تهوّم لهذا الجمال الاخضر، وهو من توالي الهدير ، كأنه ينعس !

اغصان الشجر – حين تتبادل الاشارات .

سد النهر – يفتح ويسد على هواه، فلا حاجة في ضيعتنا الى وزير من هولاندة ..

السروة السوداء (الصاعدة في الجو) – فكأنها وسط ذلك، لفظة (آه) على الجمال الاخضر ..

امين نخله



الخيال

لرئيف خوري

نعمى الهوى ياخيالها الزائر … طفت فآنست وحشة الساهر
منيت قلبي النعيم فيك وكم … تنفر مني كنفرة الطائر
اشتاق عينيك في سهومهما … شوق المعنى وحيرة الحائر
لا اقبل اللوم فيهما ، وهما … عذر لمن ليس في الهوى عاذر
ادن فيا رب نسمة ارجت … منك فعادت بطيبها الهاجر
دونك صدراً تلح اضلعه … فمل عليه بـ اشقر ثائر
غلت يد المسك في غدائره … ونفضت عاطراً على عاطر
وباهت الشمس انها نسلت … خيوطه من شعاعها الباهر
وغن في مسمعي بضحكتها … واجل بخد كخدها الناضر
احبها ضحكة مفردة … اصداؤها في غياهب الخاطر

***

اراك ياليل معجلا فاقم … واولني نعمة انا الشاكر
وابصر الصبح حث طلعته … ياليته كان مرة عاثر
بددت يا صبح بهجة السامر … يا صبح يا مستبد يا قاهر
مالي وللضوء بت اكرهه … كأنه الشوك يوجع الناظر
كم ذقت من حلو لذة عبرت … لم يبق الا خيالها حاضر
صدرت عنها بما وردت ، فما … احسستني وارداً ولا صادر
فبت يغنيني الخيال ، وقد … عجزت عن لذة بلا آخر
لو ان هذا الخيال دام معي … لكنه مثل لذتي عابر
يطفو على الليل ثم يغرقه … في الصبح فيض من السنى غامر
قالوا عن الليل كافر — وهموا — … يا ايها الصبح انك الكافر

طرطوس — رئيف خوري

ابتسامة

بقلم ابن الغرب

◆

من اجمل العادات التي يجب ان يزرعها الاباء في قلوب ابنائهم، منذ نعومة الاظفار، البشاشة في الوجه والابتسامة على الفم. فان هذه العادة تكون، في حياة الانسان، سبباً كبيراً لنجاحه في كل مساعيه. بل انها قد مثلت وحدها، اهم دور في تقدم البشر وارتقائهم وعمران هذا الكون.

ليس بين الذين يقرأون هذه السطور، من لم تقع له حوادث، تبين فيها اهمية الابتسامة في الحياة. الام تستدعي ولدها بابتسامة على شفتيها، فيسرع اليها، ويترامى على قدميها. واذا عبست له نفر منها، وابتعد عنها. وكل امر او نهي يصدران مع ابتسامة يطاعان اختياراً، لا اضطراراً. وافضل الاعمال نتيجة، ما عمله الانسان مختاراً.

ولقد دعونا بشاشة الوجه، وابتسامة الثغر، عادة. مع ان بين الناس من يكون ذلك فيهم خلقاً. ولكن من كانت العبوسة في وجهه طبعاً يجب ان يحاول اقامة العادة لديه مقام الطبع. وما حرمته اياه الطبيعة يكتسبه بالاعتياد والتمرن. فالانسان قادر ان يبتسم بالسهولة عينها التي يعبس بها. ومع ذلك ما اقل المتعودين بيننا، البشاشة والابتسام.

بل ان بعض الناس يحاولون بالعكس، تربية العبوسة في ملامحهم. لان عقلهم القليل القاصر، صور لهم ان العبوسة تزرع الخوف منهم، والاحترام لهم، في قلوب الناس. فهم وعقولهم بقية باقية من اجيال الجهل الماضية. ان القوة الحقيقية التي يحترمها الناس، ولا داعي لان يخافوها، لا تكمن بين ثنيات الجبين المقطب، والوجه العابس الشاحب. بل تظهر للنفوس من خلال الابتسام والبشاشة.

الابتسامة بحد ذاتها، لا تكلف صاحبها شيئاً. لكنها تغل له اغلالا جزيلة، تكون في اشغاله، اهم من رأس ماله. والملوك والحكام الذين برعوا وامتازوا في معرفة اسرار التسلط على القلوب، ادركوا ان اسباب الخضوع والانقياد تبدلت في قلوب الرعايا، فعمدوا الى معالجتها بالسلاح الجديد الماضي، وهو الابتسام.

الامير بشير الشهابي الكبير، حكم جبل لبنان خمسين سنة، لم يبسم في خلالها لاحد. وعذره في ذلك ان الناس في تلك الايام، لم يكونوا يعرفون لانفسهم حقاً على امير. فلو ابتسم لهم لعدوا ذلك منه انحطاطاً. اما اليوم فقد تغيرت الحال. وصارت بشاشة الوجه في الحاكم، اول دليل على صلاحه للحكم. والناس يديرون ظهورهم بلا اكتراث، لكل حاكم، او موظف كبير او صغير، يسوقه الغرور الى توهم القوة في منصبه، محصورة في قطبة زرية بين عينيه.

قيل لملك الانكليز، المرحوم ادوارد السابع ابن الملكة فكتوريا — وكان مشهوراً بالكياسة، والمهارة في السياسة: «ما اشد ما لقيت في ادارة العرش البريطاني؟» فاجاب: «ان تضطرني الوظيفة الى حضور الحفلات واضراسي تؤلمني». وحكاية ذلك ان واجبات الملك، ان تظل الابتسامة على وجهه في الحفلات. لان اقل عبوسة منه، تتخذ دليلا لدى الاحزاب على استهجانه لما هنالك من خطط سياسية. بل قد تقتل في اذهانهم مشروعاً تتعلق به مصالح كبيرة. ولم يكن الالم في اضراسه، مما يجوز اتخاذه عذراً على ذلك. بل كان لا بد له من الابتسام، تحاشياً عن اثارة الظنون لمغزى غير مقصود.

ارباب الجدل والمنطق يعرفون، ما للابتسامة من قوة غريبة في تضييق السبل على المجادل الغضبان. فان كل البراهين والحجج تسقط امام نكتة ظريفة، تغشاها ابتسامة لطيفة.

التاجر في شغله — وكل صاحب شغل على الاطلاق، هو احوج خلق الله، الى عادة الابتسام والبشاشة. واكثر التجار، في بلادنا، يجهلون ذلك. لكنهم يجهلون ايضاً مقدار الخسائر الواقعة عليهم، من هذا الجهل. ان من يدير اعمالا واسعة، بواسطة عمال كثيرين، يتعرض غالبا لامور تجلب العبوسة والكدر.

ولكن الرجل القدير الصبور، يعرف انه ليس من القوة في شيء، ان يضحك الانسان ساعة الطرب. وان يهش ويبش عند رواق الامور في عينيه. بل اذا تراكمت البضائع في المخزن، ولم يجيء من يشتريها. ووقف العمال في الزوايا، ولا طلبات يشتغلون فيها، فعندئذ يعرف التاجر البارع، من الخامل. والعاقل، من الجاهل.

تاجر يصابح محله، باسم الثغر وضاح الجبين. فيبادر عماله بتحية خارجة من قلبه، لا من طرف لسانه. وفي بحر النهار، لا يعدم وسيلة لقول كلمة صغيرة، لكل منهم، تخفف اتعابه وتشرح صدره. هذا هو التاجر الذي يسر عماله بحضوره ويغارون على مصلحته في غيابه. وتاجر يدخل المخزن، عابساً كالح الوجه مقطب الجبين، يريد قبل كل شيء، ان يمتع نفسه الصغيرة، بلذة الرئاسة والسيادة والتحكم. يريد ان يشعر الذين حوله، بانه علة وجودهم على الارض، لا رزق لهم بدونه ولا حياة. ولا يكاد يقفل الباب وراءه، حتى يعترض اولا على الباب. وثانياً على الكرسي. وثالثاً على ترتيب البضاعة.

ورابعاً على الدفاتر . وسادساً على هذا . وسابعاً على ذاك وذلك وهلم جرا . فلا الحسن يرضيه ، ولا القبيح يحتمل لديه . واذا لم يجد في سير الاشغال ، ما يعترض عليه ، اخترع من العدم وسيلة للاعتراض ، وتحامى اسماع العامل كلمة استحسان ، مخافة ان تغره بنفسه وتلويه عن واجباته .

هذه النفس الصغيرة ، لم يخلقها الله للسيادة ، بل للعبودية . لكنها وجدت في قالب السيادة ، كما توجد الاشياء حيناً في غير موضعها . . فكم من نفس صعلوك حقير ، تسكن في هذه الدنيا، جسد امير خطير . وكم من نفس امير ، في صدر مسكين فقير ! .

ان النفوس الصغيرة لا تعرف قيمة النفوس الكبيرة . بل تشك في امانة الناس ، وتخاف من كل مساعد لها ، ان يختلس اموالها . ذلك هو التاجر الذي لا يبسم لضيوفه وعماله . ولا يحسن بالبشاشة ادارة اعماله .

ان هذا التاجر ، اذا دفع لعماله اكبر المرتبات ، استصعب لقيان من يرضى بالعمل واياه . واذا عرض بضائعه بارخص الاسعار ، لم يجد من الشارين اقبالا . لان كسب المال ، على تكالب الناس احياناً عليه ، ليس دائماً وابداً غايتهم الوحيدة في الحياة .

الشاب الذي يحب فتاة جميلة الوجه ، قبيحة اللسان ، لا يلبث ان يمقتها ، رغم جمال منظرها . والتاجر الاعبس لا يحتمل الناس معاملته طويلا ، بل يتخلون عنه ، وعن المكاسب المنتظرة منه .

والابتسام على وجه العامل يفيده ، كما يفيد صاحب العمل . ونعني بالعامل ، جميع المأمورين على الاطلاق ، من اكبر دوائر الحكومة ، الى المعامل والمخازن ، الى جميع الاماكن التي يدخلها الناس للاخذ والعطاء . فمهما يكن العامل كاتباً بارعاً ، او بياعاً ماهراً ، او حاسباً ضابطاً ، فكل ذلك يحسب له نصفاً ، في نظر رئيسه ومعامليه — وملامح وجهه ، النصف الآخر . لا بل الابتسام في وجه العامل ، يفوق في التعديل قيمة المعارف التي في رأسه . ولذلك لا يرجى نجاح في مضمار الحياة ، لشاب تبلغ منه الانانية حد ازدراء الآخرين .

ذلك الذي يتولى عملا ، فيتوهم ان عليه فقط قيام ذلك العمل . وان ما حشرت المدارس في رأسه من الصرف والنحو ، واللغات الاجنبية ، تجعله في تلك الدائرة ، اهم من اوراقها ، وفي المخزن ، اجل قدراً لدى الناس ، من اشكال البضاعة ، يظن ان رئيسه لا يستغني عنه ، ولا يستطيع الاستمرار في العمل بدونه ، فيقطب حاجبيه السخيفين امام الرئيس ، وامام العمال ، وامام الناس ، ليسجل في افكار الجميع سمو مركزه وينال من احترامهم ما يجدر به . على ان ابتسامة لطيفة على ثغر ذلك الغر المتعلي ، حماقة وجهلا ، كانت تجنيه بكل النتائج التي يسعى لها ، من جهة ثانية ، سعياً يبعده في واقع الحال عنها .

هنا تخطر ببالنا مناسبة مخصوصة ، لكلمة خارجة بحد ذاتها ، عن موضوعنا الاصلي : اكثر الكتاب الصغار ، والعمال الجدد ، ينكرون في قلوبهم على رؤسائهم كل مقدرة عقلية ، لكون هؤلاء غير متعلمين مثلهم مبادىء العلوم ، التي يحملهم الغرور على استعظامها . وينسبون اليهم الجهل ، لانهم لا يعرفون معارف الكتاب والعمال الخاصة . وهو جهل من الكتاب والعمال ، لا اقل ولا اكثر . لان الاعمال التي تدل ، على مقدرة العقول ، كثيرة متنوعة . فالكاتب تظهر مقدرته في الكتابة . والتاجر في التجارة . والمهندس في الهندسة . والشاعر في الشعر . والنجار في النجارة . والحداد في الحدادة .

فاذا كان التاجر لا ينظم الشعر ، فلا يعد جاهلا . ولا الكاتب الذي يجهل اصول التجارة . بل الجاهل ، من يطالب كل فريق بمعارف الآخر .

في البيت ، في الحياة العائلية ، لا تمكن المبالغة في قدر قيمة الابتسامة . كل انسان تعب ، مضطرب ، في حياته ، يجب ان يلوم نفسه على ذلك . لان الراحة ممكنة وميسورة ، لمن يدري كيف يسعى للحصول عليها . فلو مرن المرء نفسه على الابتسام ، لما استطاع مجاوروه ان يعاملوه بغير اللطف والبشاشة .

انت مهما تكن غاضباً ، لا تستطع ان تعبس طويلا في وجه من ينظر اليك برقة وابتسام . الزوجة التي تستثقل طباع زوجها ، والرجل الذي يستهجن معشر امرأته ، وكل فرد في الاسرة يكره الوجود مع افراد اسرته — يمكنه مع الايام ، ان يقلب ذلك الحقل الشائك ، الى روضة زاهرة . وذلك الجحيم الى جنة . والتمرن على الابتسام ، هو الوسيلة الفعالة ، للحصول على هذه النتائج .

ان المال قد ينفد ، ولا يعدم الانسان من نبات الارض ، ما يقتات به . والمساعي قد تفشل ولا تضيق بالمرء دنياه . والآمال قد تنقطع ، ولا يخلو القلب من بعض السعادة . ولكن — الويل لمن يعيش بين الناس ، ولا يبادلهم تحية ، ولا يلقي عليهم ، ولا يلقى منهم ، ابتسامة .

امين الغريب

الكتاب ...

بقلم راجي الراعي

هبط على امس نسر من سماء الخيال وبين جناحيه كتاب القاه بين يدي وانا في عزلتي استنزل ما اطلع به عليكم وقال لي : خذ واقرأ، وما هو ان حدق الي بعينه التي كادت تسعني حتى شد جناحيه وضرب بها جواز الفضاء وعاد الى مقره . . فقمت الى الكتاب اتصفحه واليك ما فيه :

في رأس الصفحة الاولى قرأت هذه الكلمات : انا صفحة الرماد ، ثم برز الى سطرها الاول وقال : كنت الف لسان يندلع من افواه الشهوات والغرائز والاهواء فقطعتها بيدي فلفظت انفاسها في رمادي . . انا سطر الرجولة والصبر . . وتكلم السطر الثاني وقال : كنت الف كتاب احمر من كتب الحياة فكم من جميلة ترنحت بها وكم من وليمة اولمتها وكم قلبت يداي اطنان الذهب وكم زينت رأسي باكاليل المجد ، وكم سكب لي النعيم من كؤوسه على مختلف اسمائها والوانها وكم شيدت من الناطحات وطرت على اجنحة الشهرة الى اقصى الافاق ولكنني مللت في النهاية وتقت الى شيء آخر ، وما زال السأم ينحدر بي حتى ثويت حيث تراني، انا سطر الملل في صفحة الرماد . . وقال السطر الثالث : كنت الف مجرم في الف مدينة ، وكنت ناراً اشتعلت بها ضحاياي التي عبثاً كانت تصيح بي تذكرني بالشريعة والعدل والرحمة فلم اكن اسمع صراخها وابوابي موصدة في وجهها وقد ذقت ما لا يوصف من الام السجن والنفي ثم انشق امامي فجأة حجاب كثيف واستيقظ ضميري فثبت لساعتي وارتديت هذا الثوب ، وانا سطر التوبة ، انا التوبة الرمادية النادمة المستكنة صفحة الرماد . . ونهض السطر الرابع وقال : كنت ليلا في رأسك وضراماً في هوسك وشبابك انا في الرماد سطر الشيب والوقار . . وتقدم السطر الخامس وقال : انا ساعة الشفق في يومك . . وقال السادس : انا رماد الفلسفة والزهد . . وقال السابع : انا رماد اليأس والفشل . . وقال الثامن : انا الجنون . . وقال التاسع : انا . . بوذا . . وقال العاشر : انا الموت . .

هالتني كلمة الموت فطويت صفحة الرماد ووقعت على الصفحة الثانية فاذا فيها : انا صفحة الريح وما هو ان قرأت سطراً حتى تعالت منها هذه الاصوات : انا النذير – انا الفتنة – انا اليد التي تقتلع الاشجار – انا ابن الاعصار – انا ابن الجلبة والفوضى – انا مذكي اللهيب – انا زفرة العبقرية – انا نعمة الاقدار او نقمتها . .

رنت كلمة النقمة في اذني رنيناً فطويت صفحة الريح وقلبت الصفحة الثالثة فاذا فيها : انا صفحة الصحراء واذا هي تشكو الي امرها قائلة : انا جثة بحر جف ومات – انا العصية المتمردة اتحدى نجوم السماء وامواج البحر برمالي – انا حرفة الفيلسوف والشاعر والفنان والظمآن والجائع والجريح والعليل ، حرفته الكبرى – انا ابنة التيه والتائهين – انا الهة الصمت – انا الكف المبسوطة تتسول الشجرة والينبوع – انا جفاف العقل في المجنون وهجمة الضمير في المجرم وصرعة العرض في الزانية وعرى الايمان في الكافرين . .

وهزتني كلمة الكفر فطويت صفحة الصحراء فاذا انا في الصفحة الرابعة صفحة المرأة حيث رأيت سطراً واحداً شمخ علي يتحداني بعين ابي الهول ويقول : انا المرأة وعبثاً تحاول ان تفهمني . .

واسرعت الى الصفحات التالية فاذا هناك صفحة الخمرة وفيها : ايها الصعلوك ، انا وحدي استطيع ان اجعلك ملكاً . . وصفحة النجوم وفيها . نحن عيون الله فيك .. وصفحة القمر وفيها . انا قاهر الليل والغامة تقهرني .. وصفحة الشمس وفيها . ايها الغلاظ الاكباد القساة القلوب انظروا الي واقرأوني . انا الرحمة .. وصفحة البركان وفيها . انا الثورات في ثورة .. وصفحة البحر وفيها . انا يد في معصمها ، انا في شاطيء في اصدافه التي تحوى درري ، انا صوت سره وصداه في شاطيء .. وصفحة الموهوب ، الفنان وفيها هذا البيت من الشعر .

ولولا زفيري اغرقتني دمعتي ... ولو دموعي احرقتني زفرتي

وصفحة التاريخ وفيها . انا نسيج الدهور .. وصفحة المجد وفيها . انا دخان قديم يعود الى شعلة الطمع الاولى .. وصفحة المنتحر وفيها . انا رجل شرب دمه جرعة واحدة .. وصفحة الارادة وقد رسم فيها سيف عريض مسنون .. وصفحة الاحساس وفيها نقطة دم كثيفة تحت سطورها .. وصفحة العقل وقد رسم فيها حبل طويل ثخين .. وصفحة الذاكرة وقد رسم فيها منجم عميق عميق .. وصفحة النسيان وفيها رسم الهاوية .. وصفحة الكبرياء وقد رسم فيها جبل شاهق ينطح الافق .. وصفحة الثروة وفيها . انا صاحب مليون ولكنني صاحب علة اعيت الطبيب .. وصفحة الاثير وفيها ان في من زفرات المتألمين اكثر مما في من الاوكسجين .. وصفحة الشرف وفيها انا في كل يوم اصاب بالف طعنة ، انا الشرف ولكنني في يد الناس آنية من خزف .. وصفحة الفجر وفيها . (قطرات نداى) .. وصفحة العلاء يزينها رسم النسر وبها ختم الكتاب فقمت به وقد اصابني دوار الفن مما رأيت وقرأت وسمعت ، اضمه الى مكتبتي فاذا بذلك النسر الذي نفحني به يهوى علي صائحاً : اعد الكتاب فهو لي ، فقلت له بل هو لي وقام العراك بيننا نتجاذب دفتي ذلك الكتاب ولكن اين لي عين النسر ومنقاره وراح يضربني بجناحيه وانا اضربه بجبيني ، وما زلنا على تلك الحال حتى اطل علينا الخيال وفرق بيننا وهو يخاطبنا قائلا . النسر اوحى بهذا الكتاب وانت كتبته فانتما شريكان فيه ولكل منكما النصف واستعاد النسر نصف الكتاب وعلا في الجو وهو يحدجني بعينه قائلا : ما اطمع الانسان وما اكفره بالجميل ! ? واحتفظت بالنصف الاخر وانا احدج النسر بعيني قائلا : ما اتعس الفنان تنشب فيه مخالب الطامعين ..

راجي الراعي

الفن في الخطاب

بقلم المحامي ميشال شبلي

قالوا ان من البيان لسحرا .

وقبل ان يدرج الانسان الى الكتابة فالطباعة ، استعمل الكلام للتفاهم والبيان . ولم تضع الكتابة من قدر الكلام وسحره بل كان ابداً للقائل فن يسطو به على السامع بقوة قد لا تكون للكاتب في الظروف ذاتها .

وقد اتخذت الخطابة منذ القدم المقام العالي في السياسة والاجتماع ، وكذلك في الارشاد والمحاماة ، وما زالت حتى اليوم اداة لازمة في هذه الميادين ولا سيما بعد ان جاءت الاختراعات الحديثة كالراديو تجعل جمهور السامعين لا يحصى عدا ولا يحد مكاناً .

والخطابة فن مكتسب . واذا كان الشعر سليقة كما يقولون ، فان الخطابة اقتباس وكسب . ولهذا الفن قواعد وضوابط ، ويخطىء من يحسب ان الثرثرة سهولة في الكلام وان كثرة الكلام مقدرة في البلاغة ، فليس كل بيضاء شحمة ولا كل سوداء فحمة . وحسبنا الان ان نحصر البحث ببعض الفن في الخطاب ، فنقول كلمة عن سبك الخطاب وكلمة عن حسن القائه .

سبك الخطاب : يجب على القائل اولا ان يكون عارفاً بموضوعه ، ملماً بجذافيره ، وان يكون مالكاً ناصية صنعته . فمعرفة الموضوع واجبة لكي يسهل على القائل سبك خطابه بمقدمة ووسط ونتيجة كما هو فن الانشاء ، ولكي يسهل على السامع فهم ذلك الموضوع وادراك غايته ، فلا ينتقل به القائل من الديك الى الحمار كما يقولون .

واقبح من جهل الموضوع ثرثرة القائل ، فيهرف بما لا يعرف ، وعندئذ يصح فيه ما قيل عن ذلك النظام :« وشاعر لا تستحي ان تصفعه . » اما العامة فقد تنوجها الثرثرة الفارغة ، حتى لقد سمع بعضهم يقول : ما اجمل هذا الخطاب ، او ما ابدع هذه المرافعة ! ولكنه لو سئل عن ذلك الجمال والابداع لم يحر جواباً ، لانه لم يفقه شيئاً من ذلك الكلام . قال النبي العربي : « ابغضكم الي الثرثارون المتشدقون . »

وقد يتهمون المحامين بكثرة الكلام في مرافعاتهم ويحسبون خطأ وجهلا ان مهارة المحامي هي بهذا . على ان الحقيقة اليوم هي نبذ الثرثرة جانباً وادراك الجوهر بالقليل من الكلام البليغ ، اذ على المحامي ان يدرك ما يريده منه القاضي العصري وهو ينحصر في كلمة : فهم الدعوى بسرعة ووضوح .

وبذلك تخف عن المحامي وطأة ما ازدراهم به راسين في رواية « المتقاضين » Les Plaideurs عندما نسب للمحامي الابتعاد عن موضوعه والتيه في ما لا نهاية له من السفسطه .

ولكن ما هي تلك البلاغة المطلوبة في سبك الخطاب ؟

– قالت العرب « ان البلاغة هي ايجاز الكلام وحذف الفضول وتقريب البعيد ، فلا يؤتى القائل من سوء فهم السامع ، ولا يؤتى السامع من سوء بيان القائل » . والبلاغة في الخطاب هي في ان يدخل القائل في نفس السامع ، بواسطة الكلام – الافكار والعواطف التي يجيش بها صدره . فهو فن الاقناع ، بل فن تصوير الافكار . هو الوضوح والايجاز . وقد كان موليار يقرأ ما يكتب على خادمته ويقول :« اذا هي فهمته ، فان جميع الناس يفهمونه . »

ومن هذا القبيل ما ورد عن ابن السماك ، فقد تكلم يوماً وجارية له تسمع ، فلما دخل قال لها : كيف سمعت كلامي ؟ فقالت بانتقاد : الى ان تفهمه من لم يفهمه ، مله من فهمه . ومن احسن ما جاء في بلاغة الايجاز جواب الفرزدق للحسين وقد لقيه في مسيره الى العراق ، فسأله الحسين عن الناس ، فاجابه : القلوب معك والسيوف عليك والنصر في السماء .

القاء الخطاب : وفي الالقاء يجب على القائل ان يملك الفن كل الفن . واول شروطه البساطة ، وهي منتهى الاناقة والكياسة ، سواء في وقفة القائل او في حركات وسكنات وجهه وجسمه ، فيقف على منبره غير وجل ، ناظرا الى السامع دون التطاول بنظره الى الجو او ذات اليمين وذات اليسار .

وهنالك صفات تحبوها الطبيعة واهمها الصوت ، اي تلك النبرات الحينة العذبة التي تدخل الاذان بدون استئذان ، فيسمعها اخر الجلوس دون ان ينبو عنها سمع اقربهم . اما اذا كان للقائل صوت يمجه السمع فالاحرى به ان يعدل عن الكلام . والصوت هبة من الله للخطيب . فقد رووا ان جان جوريس تكلم في احد مؤتمرات حزبه في تولوز طيلة نهار كامل دون ان تتبدل نبرة صوته .

واما طريقة الالقاء فقد كانوا قديماً يرونها على ثلاثة وجوه : في تلاوة الخطاب او في ترديده او في ارتجاله . ولكن لم يبق اليوم من طريقة واحدة مطلقة ، بل اصبح سر القائل بان يمزج تلك الوجوه فتكون له طريقة خاصة به وبظروفه .

وقد نصح احد كبار الخطباء السياسيين في عصرنا بان تكون طريقة الالقاء حسب المجمع السامع . فاذا وقف القائل في جمهرة من العامة ، فيجب ان يكون نطقه بلهجة قوية حازمة ، واذا وقف في مجتمع من الخاصة فيجب ان تكون القوة في الحجة والمنطق ، واذا تكلم في جمهور قليل فيكون قوله حديثاً بدون تكلف .

ويشين الالقاء ما يسمونه التمثيل . اجل لقد قالوا : رب اشارة ابلغ من لفظ . ولكن الاشارة بذوق وكياسة حسب الاقتضاء هي غير التمثيل المسرحي الذي يجب على القائل ان يربأ بنفسه عنه .

ان القائل اذا لم يتمكن منذ مستهل خطابه او منذ دقائقه الاولى من استمالة السامع بالافادة والشغف ، يكون قد فشل واخفق . ويحق للسامع حينذاك اي عندما لا يبلغ الصوت مسمعه وعندما يسفل القول عن الافادة والمتعة ، يحق للسامع ضناً بوقته ان يترك القائل وشأنه مردداً قول زهير في معلقته :

وكاء ترى من صامت لك معجب   زيادته او نقصه في التكلم ..

ميشال شبلي

اليكم معاشر الكتاب

للكتاب في عصرنا هذا رسالة قومية يطلب اليهم تأديتها بلغتنا العربية فنحن نطمع ان يمثلوا لنا روح هذا العصر ونزمل ان يبعثوا ادبا حيا مما يدور حولنا وما نشعر به وما نريد ان نصل اليه . وكم يحسنون صنعاً لو حدثونا عن مشاكلنا والامنا ومركب النقص فينا . من حقهم ان يرسموا لامتهم في كتبهم وما يصدر عنهم هدفاً او غرضاً سامياً يوجهون الناس اليه ويذكرونهم به، وان استطاعوا فليجعلوا غرس هذا المثل الكبير غاية تفكيرهم ومرمى نجاحهم . ولن يغيب عنهم ان الادب مدرسة كبرى للعامة والخاصة — بل العامة احوج اليها من الخاصة — وان عظمة هذه المدرسة تقاس بكثرة الخلق الذين اتصلوا بها وقرأوا عليها وتخرجوا منها . وان نجاح الكاتب يقاس بما يصوره في اذهان الناس من المتناقضات السائدة في وسطه ، وبما تتركه كتابته من الاثر الثابت الواضح في عقولهم ، وطريقة تفكيرهم ، وما يغرسه في ضمائرهم من العواطف الطيبة التي تدوم مع الزمن ، ثم بما يقويه لديهم من الدوافع النفسية التي تحرك الفرد والجماعة على السواء نحو العمل في سبيل فكرة ما ، او تحقيق غاية معلومة .

لدينا اقلية تنك واغلبية لم يصل صوت الحق اليها

سيقول بعض الملأ من الكتاب الى من تكتب، ومن لديكم ممن يقرأ ويعي ويفهم ؟

كلمة حق ، وفكرة لها خطورتها لانها تحمل معنى السلبية والجمود ، وكلاهما ضرر كبير اذ يدعوان الى التشاؤم وهو عدو الحياة اللدود ..

الحق ان الخاصة (élite) من الذين يقرأون وينقدون ويحللون وينفذون الى لب الاشياء، ويزنون الكلم ومواضع الكلم بعيار هم قلائل في اوساطنا، ولكن لدينا زرافات من المتعلمين تعليماً ناقصاً يقعد بهم عن النظر الى الحياة نظرة ايجابية ، واذا اتى نقدهم جاء غير مستكمل ، واحياناً يكون غير سليم .

تلك اقلية من فئتين يصعب على الكاتب اقناعهم ولو انفقت ما في الارض جميعاً لما وفقت بين قلوب الخاصة ولما ارضيت الآخرين .

انا نريد من الكاتب ان يجرب حظه مع تلك الاكثرية الساحقة من القراء ، تلك الاغلبية من الناس التي تقبل وتصدق وتؤمن بكل ما يقال ويكتب ، فهذه الجماعات من القراء ، هدايتها امانة في اعناق اهل الكتابة، لانها في حاجة الى ان يصل اليها صوت الحق والبيان الناصع ، والدعوة الى العمل الجد الصالح ، قبل ان يشوش عليها صوت الباطل ، وهو صوت يدعو الى التفكك والتبطر ، ويدخل الهزيمة والفوضى بين الصفوف .

والكاتب الفذ المؤمن برسالته الذي يدعو الى كلمة سواء ، هو الذي يكتشف الصلة التي تربطه بهذه الزمر من الناس، ويجعلهم يشعرون ويحسون بوعيه، فيدمغ عصره بطابعه حينما يسطر صحفاً من الحقائق الناصعة ، تتلقاها الاذان وتعيها الانفس ، وتحفظها الافئدة، ويوم تقرأ له هذه الجماعات من الناس فتفهم ما يقول لانه يكتب بلغة تصل الى القلوب والضمائر لانها سلسة تفيض حياة .

اني واثق من انه اذا وفق الى شيء من ذلك يكون قد ارضى ضميره، وادى رسالة، وعلم الناس بعض الكتاب والحكمة .

يكتبون باسلوب صيانة لاغراضهم من العوام وضنا بها عن الطغام

اقول ذلك، ومع هذا، فقد اتى على الناس اجيال، والكتاب يمثلون طبقة ممتازة من ارستقراطية الفكر ، لهم طباعهم الخاصة ، وامزجتهم الشاذة ، تراهم يكتبون بلغة غير لغتهم القومية ، واذا تنازلوا للكتابة بها ، عبروا عما يجول بخواطرهم ، باسلوب سكان الاوليمب ، وطلاسم اهل الباطن ، وبلغة خاصة بهم صيانة لاغراضهم من العوام ، وضنا بها عن الطغام ، وتنزيها للحكمة وفنونها ، من ان يتداولها الناس ، وكيف يتساوى الجاهل والعالم ؟ تلك نظرية اتى عليها الزمن ، وهدمتها الايام ، ولكن كتابنا واكثرهم مقلد والقليل مبتدع ، يأبون الا يتمثلوا بموقفهم الاول، ومراكزهم التي وضعوا انفسهم فيها ، رغم تقدم العالم ، وتيقظ الجماعات . ولئن كان للسلف الصالح اعذارهم خوفاً من وشاية واش، او خشية وقفة امام محاكم التفتيش ، فما عذر الكتاب اليوم ، وشمس الحرية تملأ الكون ، ليحولوا بين افكارهم وعقول الناس ، اللهم الا الرغبة في مخالفة المألوف ؟

احقاً قد قطعنا مراحل الجاهلية الاولى ، واقتحمنا عقبات العصور الحجرية ، فاصبح العلم حقاً مشاعاً للجميع ، الزم للانسانية

من عناصر الهواء . ان العامة في حاجة الى ادبكم ايها الكتاب ، كحاجتهم الى العلم والهواء .

الكتابة صناعة وفن اصعب من الكلام والخطابة

الكتابة تقليد للكلام ، وقل من الكلام ما لا تصحبه الاشارة بتحريك اليد ، او تأكيدها بمظاهر الوجه ، ولذلك كانت الكتابة من ناحية التأثير فناً اصعب من الكلام . انك اذا اردت ان تقول للناس قولا يصل من اسماعهم الى قلوبهم ، أليس من الحق ان يكون سهلا ترتاح اليه نفوسهم ؟ واذا حرمت القائل من اشاراته وما يفصح الوجه عنه ، ووضعت هذا الكلام على الورق ، أليس من حق الناس ان يطلبوا اليك ان تدب الحياة فيه ؟ هنا تتجلى مقدرة الكاتب الذي يستعيض عما يلاحق الكلام العادي بالاسلوب الرشيق الحي ، والذي لا يموت ، والذي تشعرك كل كلمة منه بالحياة فيها ، وكل جملة بالحيوية فيها ، وكل معنى بما تريد ان تقول . اسلوب يرتاح اليه القارىء المختلي لنفسه ، ويستحوذ عليه وهو قابع في فراشه ووحدته ، تراه حياً منسجماً موسيقي الوقع ، مع الاحتفاظ باصول اللغة وطلاوتها ، تقرأه بصوت عال ، فيسيطر عليك ، وتنطق به في داخلية نفسك ، فكأنه يحدثك عن سر يبوح به اليك وحدك .

ولكم من جملة صغيرة بمفردها احسن اختيارها ، وامتزجت الفاظها بمعانيها ، اثرت في جماعات الناس وافرادهم ، وسارت سير الامثال ، فاوقفت فتنة او دعت العالم الى دخول عصر جديد .

ان الاسلوب الحي ، السهل ، الممتنع الذي تدعمه المعاني والحقائق ، هو وحده الذي يصل الى القلب ، وهو الذي تعيه العقول ، وهو الذي يقرأه الاف الناس ، لا بل لا اخجل على لغتي فاقول ، مئات الالوف ، فيخيل الى كل واحد منهم ، ان هذا الكلام كلامه ، وان هذا الاسلوب يعبر عما يجول بخاطره وما يشعر به .

ولن يصدر هذا الا عن كاتب جريء صريح مع نفسه ومع الناس ، ولن يستسيغ احدنا حرفاً من كاتب اذا لم يقنعنا بانه يؤمن حقاً بما يقول ، ويؤمن بالافكار التي يسوقها . ذلك هو الذي تلمس في كتابته دقات الحياة ، ووقع خطاها ، وتعبر كل جملة عن شخصية قائلها ، ويسوق الكلم امامك ، فتشعر بالانسجام تاماً بينه وبين كلامه ، ومعانيه ، ونفسه ، والفاظه ، وافكاره ، وتقرأ له فتزداد اتصالا به ، واقتناعاً بقوله ، واعجاباً بمعانيه .

مقال يلهث عند نهايته القارىء

كثير يكتبون ، وكثير يقرأون ، ولكن اين أثر الادب في حياتنا ، وهل افاق الجمع ، فانصت الى الادب ، وآمن بوحيه ؟ كلا .

ذلك لان ما نقرأه ، لا يحمل في كثير من الاحيان ما يريد ان يقوله الكاتب ، واذا عرف ان يدير الفكرة اعجزته الصنعة وقعد به الاسلوب . كم اسفت لوقت اضعته في قراءة مقال طويل قد رصت الفاظه ، وعبثت معانيه بغير ترتيب ، وكم اعجبت بالديباجة وبراعة الاستهلال ، وبلاغة الكاتب ، وخرجت وانا لا ادري ولا اعرف ماذا يقصد الكاتب .

وهنا نتساءل ، كم من جهابذة القلم لدينا يعرف بالضبط قبل تسلم القلم ، ماذا يريد ان يقول ؟

ان الكتابة فن من اصعب الفنون ، ولئن يكون الاسلوب حياً ، ظاهراً واضحاً ، فن ايضاً ، واجتماع الفنيين صناعة تخلق الكاتب الممرن . فكم عدد الكتاب لدينا الذين يحركون المجتمع ويطبعونه بطابعهم الخاص .

قال ابن سناء الملك :

ولي قلم في انملي ان هززته	فما ضرني الا اهز المهندا
اذا صال فوق الطرس وقع صريره	فان صليل المشرفي له صدى

ذلك قول الحق في عصره ، وتفصلنا عنه سبعة قرون طوال بعضها مملوءة بالمجد — مجد السيف ومجد القلم — ولكنه اقرب الى الحق اليوم ، منه بالامس . السنا في زمن نرى انفسنا اقدر منه على سوق العالم العربي وقيادته ؟ اين الوسائل التي بين ايدينا من وسائله المحدودة ؟

لذلك فانني اؤمن برسالتكم معشر الكتاب ، واثق في قوتكم ، واثركم ، ودعوتكم . ان اثركم سيكون اكبر مما تنبأ به لكم ابن سناء الملك ، يوم تستمدون صراحتكم من شجاعتكم ، وجرأتكم من اخلاصكم ، ومن ايمانكم بقدسية رسالتكم ، يوم تميزون الخبيث من الطيب ، فيهابكم الناس ويخشون صولتكم ، لان كل كلمة هي من وحي ضمائركم ، وخلاصة تفكيركم ، ولكل حرف تخطونه صدى تجاوبه اسماع ملايين من الناس من ابناء يعرب .

« اسامة »

الديمقراطية والشورى

لجبرالله نوبي

هي الشورى ، هي النهـج الصواب … لحكم الناس قال بها الكتـاب :
نمت والجو حـر في اثينا (١) … تشاد لهـا الهياكل والقباب ،
وفي رومـا اظلتهـا قصور … كما انبسطت لها الساح الرحاب ،
وفي العربي كـانت منذ كانت … لـه الصحراء والجيل العراب ،
سرت منـذ البداوة واستمرت … تجوب مع القبائل حيث جابوا .
انسى خطبـة الفاروق لمـا … اهـاب بقومه كيف استجابوا ؟
فـان فتى من الاعـراب لبى … يقول ليس يعدلـه خطاب :
« اذا بـان اعوجاج فيك رحنا … بهذا السيف ..» واختلج القراب .
فلو لم تحكم الشورى عراهـا … لضاق الصدر واتسع العقاب .

◆

هي الشورى حقوق الشعب فيها … حصان ، ان يهددها اغتصاب ،
تحد مـن المطـامـع حين تنزو … مكشرة ، لهـا ظفر وناب ،
ويلقى المستبد بهـا شكيما … اذا ازدحمت بشهوته الركاب .
فلا يخشى الضعيف ضيـاع حق … ولا يغري القوي بها وثـاب ،
وتكفل للجميع على التسـاوى … حيـاة لاتذل بها الرقـاب .
مـن الحريـة السمحاء ظـل … عليها ، والنظام لهـا اهـاب .
تقدس حرمـة الاراء حتى … تمحصها فينكشف الصواب ،
فـلا ضغط على التفكير فيهـا … ولا عقل لـه قفل وبـاب .

◆

على الشورى سلام مـن شعوب … عزقهـا المخالبـ والحراب ،
انـاخ بهـا الطغاة فجردوهـا … كما جردت فرائسها الذئـاب .
وللطغيـان في حكم الرعايـا … طرائق قد يشيب لهـا الغراب ،
يسد منـافـذ التفكير حتى … يعشش في حواشيها التراب ،
فيغدو العقل يحجبـه ظـلام … ويمسي الفكر يغشاه حجاب ،
يصوغ هوى الاناس على هواه … فليس سوى رغـائبه ارتقاب ،
فتلقاهـم وان نطقوا قطيعـا … يهش عليهم راع مهـاب .
فـاين حيـاتهم من عز قوم … لهم في حرمة الشورى مثاب ؟
يعيش الفرد حرا في حماهـا … كـان حياته ابدا شباب ؟
يفكر او يقول وليس يخشى … عقابـا او يرغبه ثواب ،
يرى الاكوان ميدانا فسيحـا … غذاء الروح فيها مستطاب .
وللانسان في الدنيـا حقوق … من الرحمن يخطئها الحساب ،
لهـا الشورى سيـاج في حيـاة … تغذيها الاماني العذاب ،
وما معنى الحياة اذا كفاها … طعام في المذلة او شراب ؟

جبرالله نوبي

---

١ – اثينا القديمة مهد الديمقراطية

٢ – روما القديمة ، وهي غير روما الطاغية الفاشيستي موسوليني

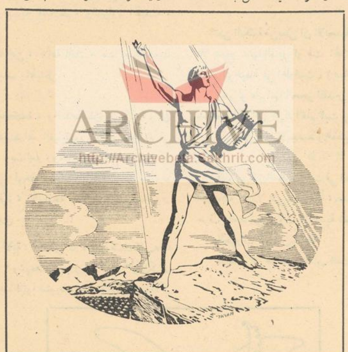
الاواني المقدسة

بقلم الياس خليل زخريا

اكاد وانا اقرأ « الابجدية » اؤمن بان العظمة في النحافة لا في الضخامة وبأن هذه الانفس البشرية كلما ضمر قالبها، ودق، واحكم كلما قربت في دورانها من بحيرة الخلود العميقة.

☆☆☆

... خذ بؤبؤ عينك، وانشر ما فيه، تضق بك ساحات الدنيا، ومعابر الافاق، والحرف من الابجدية، هو الف عين، في الف عين، في بؤبؤ واحد صغير، فاذا فتحت اجفانه برأس القلم، وجناح الفكر، ورفرف الاحساس، مرت على شفاهه قوافل الرؤى مراً، وكان في مكنتك ان تمديدك مثلاً وتتناول النجمة البعيدة نفسها وتزرر بها قميص الليل الطويل، ثم تطويه بسهولة، في خلايا حرف قدر حبة او قطرة طل.



وشاء العرب ان لا تربط ابجديتهم، في نسبة نسبها، بشيء قريب، فعقدوا حروفهم بالشمس، المعبودة المقدسة، اخت يشوع، ثم حبكوها بالقمر، صنو الليل، وقالوا لرمالهم البكر السمراء: ارتجحي في ارجوحة « ابجديتنا الضادية » فدارت الارض على سلاسل النور والعتمة، وسرى الحرف العربي في كل درب مسلوكة آنئذ من دروب المعمور.

ثم مضى العرب، كما يقول التاريخ في صفحاته الموقعة، نهاراً نهاراً، وظلت الابجدية القرشية، ماثلة، كأنما هي من غير مواد التاريخ، فلا يمحى لون وجهها. اذا قلبتها اليوم وانت تسعى بثقة وبساطة ورغبة، لتعيها في خاطرك، وسعتك سعة، فغرقت فيها كما غرقت قبلك مواكب عديدة مزدحمة.

☆☆☆

وما رأيك مثلا في حرف البـاء « ب » يقف على مفرق الطرق ويشق قميصه، ثم يفتح حنية صدره ويمضي يقص..

.. اية حكاية اطول من حكايته واعجب واية اسطورة اقدم من اسطورته واعمق واية ثورة اشد من ثورته واعنف واية حوصلة ذاكرة ارحب من حوصلته، واخصب.

انه لمجنون غريب يقص عليك ما حلمت، وما لم تحلم به المجانين، وتصوره مصفقاً تحت المداد اليابس عن اساريره، ثم بعد الحناجر التي قالته، وترنمت به، والصور التي عاشت على شرفاته. والافكار التي قالت في فيئه، والقلوب التي ربطت وريدها باوتاد حدوده. ترى اين هي حدود الحرف؟؟ كلما وقعت عليه العين لتلمس اطراف زواياه ضلت حدوده، وضل رائيه.

ولنذكر انه قد تشبع العين، وتشبع الاذن، وتتمزقان اذا مر بها حصان الموت، يتخايل ويصهل، اما الابجدية فهي شيء عجيب لا ينتهي، ولا يتزحزح محوره، ولا يعتق، ولايشيخ ولا يتعب بما يحمل.

☆☆☆

اظن ان الحرف من صنع آلهة لذا عجز الانسان عن فهم

سره هذا العجز . قد تنطفىء النجمة ، وتختفي الشمس ، ويموت الانسان ، وتنحني الشجرة الجبارة ، اما اختنا الحاء "ح" مثلا فهي في ثياب الجدة منذ يوم الولادة ، اي منذ يوم اجهل ما نكون بيومه ، يوم حبل به بال الموت فولده للحياة ، ومضى يعرض امامه في غرف الدنيا الحية ، اشباحه المتوالية ، كما يعرض النهر المتدفق الوانه وانغامه ، للضفة ، ثم يمضي وتبقى في المنعطف تفكر بصمت وتؤدة وتنتظر عودته ، من البحر ،

☆☆☆

كل شيء يرتوي الا الحرف ، فهو كلما سقيته من بئر اشتاق بئراً اخرى كانه البحر ، لا يرتوي مما تصب فيه السماء والينابيع ، وان جرت من بطنه انهار ماء حي .

وما البحر بعظمته ، لو انتبهنا ، الا قطرة في حرف صغير يسع دره وحيتانه ، وعبابه المتلاطم ، واسراره المخيفة ، واعماقه الغامضة .

واذا كان لنا نحن ، جماعة القلم ، ما نعبد فلنعبد الابجدية ولنبني لها القباب والهياكل .

☆☆☆

« في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » لذلك عبد الله الفينيقيون واليونانيون ، في حديث الجمال ، وعصبه وصنائعه ، ومثالته ، وقدسته اليهودية في عشر جمل محفورة على لوحة مدلاة من الجلد الى سيناء وسقته اورشليم الكافرة ، بالاسفنجة خلا مراً فلم يبح وتر حنجرته بل تدفق بالهدى .

وسمعت الحجاز ، الاية : « فتلقى آدم من ربه كلمت فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » وشهدت الاعجاز والافحام « وان كنتم في ريب مما انزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صدقين » وانتصتت مكة الى الله يتكلم بالابجدية العربية ، فامتلأت الصحراء بالواحات الخضر ، والهوادج الحادية .

ما اعظم الحرف لو يبوح بكل ما اوعى . تصوره الان امامك يخفق في سمعك بالنبرات التي سالت على عروقه ..

بنبرات الالهة في ، ابراج الاولمب ، وشطئان صيدون وقرطجنة ، ونبرات الرب ، من طاقة قمة سيناء ، ورجع صوته في اذن البحر يوم العاصفة ، و « قم احمل سريرك وامش » واذهب واغتسل في بركة سلوام » و « اين انت » يا آدم و « سمعت صوتك في الجنة فخشيت لانني عريان » و « شوكاً وحسكاً تنبت لك »

ما اعظم الابجدية ، وما ارحب صدرها ، فلنمسح بعتبتها جباهنا ولنغطس في ينابيعها ، افكارنا وذاتنا ، ولنفتح بمفاتيحها الساحرة حجرات قلوبنا .

☆☆☆

من الكتبة من يظن ان الابجدية شيء عادي من ملكه الخاص فلا يمسح عنها الغبار او لهث الحناجر ، بل يعرضها عرض السلع الرخيصة في الحوانيت ، ويساوم ..

وهو لو علم انها الحجر المقدس لكل بناء مقدس لجلاها باسفنجة قلبه كلما تحرك القلم للبث والشكوى .

بئس من يقرأ الابجدية ويحفظها ليبيع ويشري ..

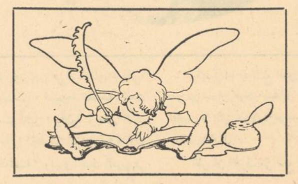
☆☆☆

فلنؤمن بان العظمة ليست في الضخامة ، وبان هذه الشموس المكوكبة كلها لا تضيء ، دهراً ، بقدر ما تضيء في لمحة ، زاوية حرف واحد من حروف الابجدية المؤلهة .

الحروف كؤوس الآلهة .

فليخف الله هؤلاء الكتاب الذين يهزأون بالانية المقدسة .

الياس خليل زخريا



محاسن الشيخوخة

بقلم شفيق طبارة

قرأت قول المتنبي :

ولذيذ الحياة انفس في النفس … واشهى من ان يمل واحلى
واذا الشيخ قال اف فما مل … حياة وانما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب … فاذا وليا عن المرء ولى

وقرأت قول غيره :

عريت من الشباب وكنت غضا … كما يعرى من الورق القضيب
ونحت على الشباب بدمع عيني … فما نفع البكاء ولا النحيب
فيا ليت الشباب يعود يوما … فاخبره بما فعل المشيب

وقرأت كثيراً مثل هذا في الادب العربي مما يدور حول التحرق على الشباب الضائع والتبرم بالشيخوخة لانها في نظر الادباء والشعراء عنوان الهم وبريد المرض ونذير الموت فسألت نفسي: اصحيح ان الشيوخ اشقى من الشباب؟ وان الشيب بسبب الشقاء والشباب بسبب السعادة؟

ان يكن هذا صحيحاً فلم حسب الاوائل العمر الطويل نعمة يغدقها الله على من اصطفى من عباده؟ وجاء في التوراة: «اكرم اباك وامك ليطول عمرك». ولم تمثل الناس الباري تعالى شيخاً مهيباً؟ ولم يدعو بعضهم لبعض قائلين : «الله يطول عمرك»؟

فلو عدت الشيخوخة عنوان الهم وبريد المرض ونذير الموت لوجب ان تأتي الآية بعكس ما وردت اي هكذا : «اكرم اباك وامك لينقص عمرك». ولوجب علينا حينئذ ان نشكر المحسن على صنيعه ونقول له : «لا اطال الله عمرك» . فهذا الرأي لا يقره المنطق. اذن هو باطل . ولكن اين وجه البطلان؟ وجه البطلان سوء تصور الشيخوخة. فالرأي السائد فيها انها دور كسل وخمول وضعف وخور عزيمة، دور محروم المسرة يدنينا من هاوية المنية ونحو ذلك.

هذا تصور شائع في الناس متأصل في نفوس كثير من ذوي العقول الراجحة وهو تصور لمعنى الشيخوخة باطل ووهم خاطئ. وقد يكون من المفيد الا اقف ساكتاً حيال هذا الوهم الشائع فافند مزاعم الزاعمين واعدد محاسن الشيخوخة بعد ان استرسل الشعراء وكبار الكتاب في ذمها حتى التبس على الناس امرها واصبحوا لفرط ما سمعوا عنها يتخيلونها قطعة من العذاب غير حاسبين ان لكل دور من العمر مميزات خاصة واخلاقاً شتى وادابا مختلفة .

ففي مقدمة الخلال المعيبة التي يصفون بها الشيخوخة قولهم انها وجود عقيم وضرر محض يعيش من بلغها عالة على الانسانية . والواقع انا نرى ارقى البلدان لا تولي القضاء الا امرأ ناضجاً قد جاوز دور الشباب . ونرى ان بعض الامم العريقة في النظم السياسية تحرص على ان يكون لها ندوة تسمى «مجلس الشيوخ» او «مجلس الشورى» اعضاؤها من الراشدين المعمرين . ونشاهد اهل كل ملة وامة يرجعون الى رأي المعمرين عند كل ملمة اعتقاداً منهم ان الشاب مطبوع على الغفلة عرضة للنزق والتطرف. اما الشيخ فقد انكسرت حدة نزقه بفعل عبر الماضي والتجارب والحنكة واصبح اصح ادراكاً لعواقب الامور .

وهكذا فليس الفتور الذي نلاحظه في الشيخوخة ناتجاً عن كسل في العقل او عن خمول في الاحساس . كلا. بل عن عادة الهدوء. وخلق الرزانة المغروسين في طبع الشيوخ . وما من ريب في ان النبوغ يرافق الشيخ فلا يفارقه ولا يهمل امره ما لم يتقاعد هو نفسه عن السعي وراء المثل العليا . وفي التاريخ رهط كبير من النوابغ الذين تبوؤا اريكة الشهرة والمجد بعد ما جنحت شمسهم في العمر نحو الغروب . اذن من الاساءة الى الحق ان نتغاضى عن الاعمال العظيمة التي يقوم بها الشيوخ القابضون على ناصية الامور وعما ينتجونه من الخير وما يحققونه من النفع . وحسبنا ان نلاحظ ان في الحياة انواعاً من الحرف. فاذا لم يكن الشيوخ زراعاً وصناعاً يغلب في اعمالهم جهد الجسوم، فانهم عقليون يغلب فيما يحترفون جهد العقول ويؤدون للانسانية خدماً جليلة لانهم يتصدرون للقيادة ويحترفون الارشاد والهداية . ولعمري ان من يناضل اصلاحاً للنوع الانساني قائم بقسطه الفطري من العمل مؤد رسالته في الحياة . واذا كان الرجال قوامين على النساء فلا شك ان الشيوخ قوامون على الرجال . . من اجل ذلك نراهم قد عظموا في عيون الخلق وكبر قدرهم فاصبحوا موشحين بالمهابة متوجين بالوقار ولا يقابلهم الناس الا باحترام واكرام .

ويذمون الشيب بانه يوهن القوة ويضعف البنية وينسون ان المقياس الصحيح ليس بقوة الجسم ورشاقة الحركات انما ذلك بالقوى المعنوية

وتحكيم العقل والاعتماد عليه . والاوجب ان يكرم الناس (الكركدن) ويحنوا رؤوسهم اجلالا للفيل . . ثم انا اذا حللنا هذا الضعف وما ينتج عنه من مرض وبؤس وجدنا جذوره الاصلية تمتد في الغالب الى دور الشباب وليس للشيخوخة فيه سوى دافع الاطراد والاستمرار . فحياة المرء لحظات متوالية متتابعة لا قدرة له على ان يفصل بينها بمحض ارادته واختياره فما نزرعه في حداثة السن نجنيه في الشيخوخة . ثم ان الشباب ليس اصح ادوار الجسم وقد يكون « كميل » في الثلاثين اقرب الى الشيخوخة من « جميل » في الاربعين لان الشيخوخة ليست نتيجة عدد السنين . ان الجسم قابل ان ينهك في اي دور فيجب الا ننظر الى اجسامنا من حيث العمر بل من حيث اسباب البلى الطارئة عليه . وكم من الناس من بلغ الشيخوخة في الاربعين ومن يبقى في شبابه بعد بلوغه الستين . وعلى ذلك فالشيخوخة ليست علة هذا الضعف انما علته وسببه طبيعة المرء وبنيته والتربية التي يتلقاها في صباه . ومن اصدق الامثال : « من شب على شيء شاب عليه » وفضلا عن ذلك فهذا الضعف بعينه قد يصيب الشبان كما يصيب الشيوخ وان كثيراً من الشباب اضعف جداً من الشيوخ فليتق الله من يلقي على الشيخوخة وحدها تبعة الخور والضعف وليراع مزاج المرء وما كانت عليه صحته في ايام الصبا والتصابي فلا ينظر الى الانسان نظرة مادية مجردة ويفرط في الاهتمام بجمال الجسم افراطاً يحجب عنا جمال الروح فالذي يهم في الانسان ويميزه عن سواه انما هو روحه لا جسمه والفرق بين الجسم والروح ان الاول يذوى على الايام والروح تزداد قوة ونضارة وبهاء . . وحينما تقوى الروح ينضج العقل وتدمث الاخلاق وتتهذب الطباع وتتسع المدارك وتكتمل الذات البشرية وهذه الشمائل (بضاعة) العمر الطويل تتلاقى في الشيخوخة وتتوافر في الشيوخ .

ويذهبون الى ان الشيخوخة دور محروم المسرة ويعنون مسرات دنيا الشباب تلك التي تقوم غالباً على النزوات الجامحة والملاذ الماجنة بله العبث والاستهتار . فاذا كانت الشيخوخة تبعدنا عن هذا النوع من الملاذ وتنجينا من الافات والارزاء وتحرمنا ما ينتج عنها من عثرات دور الشباب ، فهي اذن اولى بالمدح واجدر بالثناء . . واذا لم يكن الشيوخ بطبيعتهم وبفضل حكمتهم وحصافتهم من عشاق اللهو ، لا يستلذون اللعب والقصف ولا يندفعون في المغامرات والمخاطرات فهم يروضون اذهانهم رياضة فكرية بريئة ويجدون المتعة الحسنى في لذة الجاه والرياسة والاخلاد الى السكينة والهدوء . . فاللذة العقلية اسمى من اللذة الجسمية واللذات الجسمية السريعة الزوال لا تعد شيئاً اذا قيست بتلك اللذة الباقية لذة العقل فبهذه تطمئن النفس ومنها يتخذ الانسان عدة لحوادث وصروف الزمان . واشهد صادقاً ان الشيخوخة جديرة بالحياة لانها في ذاتها راحة بعد العناء . وفرج بعد الشدة ولذة يستمتع بها عقب النضال وعز وان كان فيه ما نكره وذخيرة نستعين بها على اطراد الجهاد والكفاح . وقد اجاد الحكيم اليوناني في وصفه مسرات الشيخوخة حيث قال : « ان لذة الشيخوخة هي في شعورك بانك غني عن اية لذة كان لك من حكمتك قوة تعينك على فهم هذه الحقيقة واذا تأصل فيك شعور الاكتفاء هذا فقد صفت نفسك وارتقت مداركك وتهذبت انسانيتك واصبحت السعيد » .

ويذم الشيب بانه رائد الموت ونذيره ويبدو لي ان الامراض والحروب تسوق الشباب الى هاوية المنية اكثر مما تسوق الشيوخ . والدليل انه لا يسعد بالعمر الطويل الا قليل . . ثم ان من خصائص الشيخوخة الرصانة والاعتدال ومثل هاتين من الفضائل ما يدفع اصحابها عن الفواحش ويصدهم عن القبائح ويجعلهم في مأمن من كوارث صعاب كثيراً ما يتعرض لها الشباب . والحقيقة ان عين الموت ترمق كل حي بدون تمييز ولا استثناء . . ونحن كلنا شبان وشيب في الصغر والكبر تحت رحمة القدر . وفضلا عن ذلك فليس من حسن الايمان ان نخشى الموت ما زال هو انتقال الروح من الفناء الى البقاء . ومن الجهاد الشاق الى الراحة الابدية . فبكاء الشباب لا يليق برجل زاهد والحسرة على ايام التصابي دليل على ضعف الايمان . وقد اخطأ من رأى في الموت الوداع الاخير والفراق الاليم . فالانسان اذا تقدم سناً واكتمل عقلا لا يحزنه ما يجري به القدر ولا يتأسف عند مكروه بل يقدر الموت لانه يخلص النفوس من الاذى ويحمد الشيخوخة لانها تقربه من الله وتجمعه — في الاخرة — ليس بمن عرفهم من الاهل والخلان فحسب بل ينعم ايضاً برؤية من سمع عنهم ولم يؤاته الحظ بمشاهدتهم في دنياه .

وبعد ، فلا اريد ان اختم هذا البحث دون ان اهمس في اذن القارىء انني قد اتهم وانا شاب يمدح الشيخوخة ويمجد الشيوخ بالممالأة والمداهنة . . ولكني ابادر وارجو منه ان يستبعد هذا الشك فلست هنا في سبيل اجراء اي موازنة او مفاضلة بين الشبان والشيب . اني لاعجب بالبعض منهم ولا يعجبني البعض الآخر بيد ان الاهم ان يسمع المتبرمون هذا الكلام فلا يجحدوا نعمة الله عليهم بتشويهها ويتخذوا من هناتها ما يلقي في روع الناس الحيرة والشك وما ابغي — علم الله — فيما قدمت الا ان اغرس الامل والطمأنينة في القلوب بدلا من اليأس والكمود رجاء تجميل الحياة فيستقبل هذا الجيل الشيخوخة بسرور يعود على الانسانية بالخير الجزيل وعلى ناشئة اليوم بالعمر الطويل .

شفيق طبارة

الحرب قديماً وحديثاً

زيارة للمتحف الحربي البريطاني

يوم ٩ حزيران ١٩٢٠ (اي منذ ٢٢ سنة) احتفل في لندن بافتتاح المتحف الحربي الامبراطوري بحضور الملك جورج الخامس والملكة ماري ، والدي الملك الحالي ، ومنذ افتتاحه كانت عناية الجمهور به كبيرة ولا تزال تتزايد يوماً بعد يوم . ولقد بقي هذا المتحف خمسة اعوام في بنايته الاصلية ، فبلغ عدد زائريه هذه المدة مليونين وخمسمئة الف نسمة .

وفي تشرين الثاني من عام ١٩٢٥ نقل المتحف الى مركزه الثاني في جنوب كنسنتون وبقي فيه الى عام ١٩٣٥ وبلغ عدد زائريه ثلاثة ملايين .

وفي تموز ١٩٣٦ نقل الى مركز ثالث في لمبث رود حيث احتفل بفتح ابوابه الدوق والدوقة يورك — وما هذان الدوق والدوقة الا الملك جورج السادس ملك انكلترا الحالي وزوجته الملكة اليصابات — وظل المتحف في بنايته الثالثة هذه الى الآن . وقد بلغ عدد زائريه فيها من يوم افتتاحه الى بداية الحرب الحاضرة سنة ١٩٣٩ مليوناً و ٣١ الفاً و ٤٦٧ .

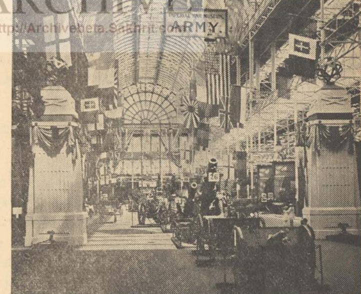
ونحن نلخص لقراء « الاديب » مقالا ممتعاً للاستاذ اريك لن يأخذ به قراءه في دورة منظمة الى جميع اقسام المتحف الحربي الشهير ويريهم اموراً غريبة ومألوفة تدهش الناظرين ، لكنها تدل ايضاً على قلة الفرق الحقيقي بين ادوات الحروب القديمة واساليبها والادوات والاساليب المألوفة في الحرب الحديثة . فيرون بعد كل تدقيق وتحقيق ان الاسلحة « الجديدة » ليست في واقع الحال الا تطورات للادوات السالفة نظمتها العقول وكيفتها الايدي .

اما اليوم فأبواب هذا المتحف الحربي الامبراطوري في لندن مقفلة في وجه جمهور الشعب ، لان من جملة الضحايا التي اوقعتها الغارات الجوية في لندن سنة ١٩٣٩ هذا المتحف الحربي الامبراطوري . فقد احدثت فيه القنابل لسوء الحظ اضراراً اوجبت اقفال ابوابه ريثما يتسنى للانكليز ان يعودوا فيصلحوه .

على ان كاتب المقال يقول انه تمكن لحسن الحظ من زيارة خاصة لداخل المتحف ليتفقد انحاءها ما بقي منه سالماً ، وتسنى له بهذه الواسطة اتحافنا بوصف دقيق لما رأى فيه ، ولا سيما الادوات التي استعملت في الحرب العالمية الاولى من عام ١٩١٤ الى ١٩١٨ ، ونسبتها الى الادوات التي يستخدمها المحاربون في هذه الايام وما بين هذه وتلك من الفوارق . بل — من قلة الفوارق .

اول ما تقع العين عليه قرب مدخل هذا المتحف لائحة الشرف العظيمة للجنود البريطانيين الذين اشتركوا في الحرب العالمية الاولى . فلقد جند الانكليز من وطنهم ومن امبراطوريتهم في تلك الحرب ٩ ملايين و ٢٩٦ الفاً و ٦٩١ رجلا . هؤلاء كانوا كلهم تحت السلاح من عام ١٩١٤ الى ١٩١٨ . وقد قتل منهم في المعارك مليون و١٠٤ الاف و ٨٩٠ جندياً .

وفي المتحف تفاصيل عديدة عن حياة هؤلاء الجنود الذين يناهز عددهم عشرة ملايين . وفيه بعض الاسلحة التي استخدموها ، من



مدافع من الحرب العالمية الاولى محفوظة في المتحف الحربي البريطاني وقد اخذت هذه الصورة لما كان المتحف في قصر البلور القديم .

القنبلة اليدوية الى الطائرة البحرية ، ومن المسدس الصغير الى المدفع الضخم الهائل . لكن هـذه اشياء لا تكاد مجموعة حربية تخلو من امثالها . اما الاثر العميق الذي يتركه في النفس هذا المتحف فينبثق من الاشياء الشخصية الصغيرة التي تشغل معظم فسحاته وتوضح بامانة تامة اسلوب الانكليز الخاص في نظرهم الى الحياة من الناحيتين الشخصية والانسانية العامة .

فصحن الدار الرئيسي في المتحف مخصوص بالفنون هنالك مئات من الرسوم تصور جميع مظاهر الحرب العالمية الاولى ، كما تراءت لاعين مصورين لا يحصى عددهم ، ما بين محترفين وهاوين متلاهين ، وقد كان كثيرون منهم في خطوط القتال . اما الرسوم فلا اثر فيها لتمجيد سخيف لفكرة الحرب ، ولا كذب على الشجاعة في تحسين مظاهر التهور والقساوة الوحشية ، ولا غرور هنـاك ولا تغرير ولا رغبة في دفع الناس الى موارد الهلكة العقيمة . لا لعمري . بل ان الخبرة الصحيحة لما هي الحرب وما تعني المصطلين بنارها ، تلك الخبرة الصادقة وغالباً الرهيبة ، هي التي وجهت ريشة المصور المتفنن وسارت بها على القرطاس او على القماش .

هذه المجموعة تمتاز عن سواها من امثالها بمزية نادرة . كل هذه الصور بدون استثناء تقريباً من صنع شهود عيان رأوا بانفسهم الامور التي رسموها . هنالك صورة عنوانها « الطوب » تمثل بيتاً صغيراً في قرية فرنسية وعلى مقربة من بابه جثة ولد منطرحة على الحضيض ووجهه الدامي يعفر الثرى .. ولماذا دعا المصور هذا الرسم اسم « الطوب » ؟

لان اول الطائرات الحربية التي انزلها الالمان الى الميـدان الجوي كان اسمها « رمبلر طوب » اي الحمامة .

وهنالك صورة اخرى مؤثرة جداً تظهر اسيراً المانياً في زورق فرنسي ، وقد جمدت عيناه فلا تتحركان في اجتهاده لاكتناه معنى ما حصل له . ترى ، ماذا حصل له ؟ لقد اخذت البندقية من بين يديه ، فرماهما يائساً على ركبتيه وابقاهما هناك خاملتين واخذته الحيرة . فارانا المصور الانكليزي البـارع منظر الانسان الذي بعدما تملكته سورة الغضب حيناً وتغلبت عليه الحدة ، وهو اول ضرب من ضروب الجنون ، عاد ادراجه مرغماً الى العقل ، واستيقظ من وحشية الفتك واطل على مظاهر الانسانية .



منظر ادوات استخدمها الجواسيس في الحرب العالمية الماضية وهي محفوظة في المتحف الحربي البريطاني .

•

وهنالك صور اخرى ممتازة تمثل احدها الحواجز المقامة لحماية مدخل المرفأ في مدينة دوفر الانكليزية .. وترينا الثانية اول لمحة وقعت من نواظر الجنود البريطانيين على مدينـة اورشليم . والثالثة تظهر نساء عاملات في دائرة مراقبة البريد . والرابعة خنادق المانية ملأى بالقتلى والجرحى . وغيرها العمل الرهيب القائم على قدم وساق في مستشفى قرب خط النار . وهنالك صورة امضاء معاهدة الصلح في فرساي ، تلك المعاهدة التي تنفس العالم عنـد امضائها الصعداء ، وتوهم بسرور ان الحرب ماتت الى الابد . ثم صورة المدافع البريطانية اثناء « رقابتها لنهر الرين » سنة ١٩١٩ ، واخيراً على طول جدار القاعة وعرضه صورة عظيمة الاتساع لا يمكن نسيانها بسهولة ، وهي صورة جنود اعمت عيونهم الغازات الالمانية الخانقة وهم يتلمسون طريقهم متدافعين الواحد الآخر الى عربة المستشفى وقد تركوا وراءهم مئات من اخوانهم المعذبين مثلهم منطرحين كالقتلى على الارض ما بين عميان او معصوبي العيون .

وهنالك صورة ذات حديث خاص بها تدعى « الحياة في حقول

مورافيا » وهي في الظاهر غير ذات علاقة بالحرب ، لكنها في الحقيقة ذات علاقة كبيرة بها .

هذه الصورة كانت تزين منتدى الضباط في الدارعة البريطانية «صفولك» وقد اهديت اليهم من زملاء لهم في تشيكوسلوفاكيا . وعليها كلمة صغيرة مكتوبة « فلاديفستوك ١٩١٨ » . فالآن فلاديفستوك في اقصى الشرق الاقصى هي المكان الذي اتفق فيه اجتماع بحارة صفولك الانكليز تلك السنة بجنود من التشيكوسلوفاكيين كانوا قد عبروا سيبيريا كلها من الغرب الى الشرق .

وعلاوة على الرسوم الشمسية المعروضة بكثرة في البناية يوجد هناك عدد يناهز ستين الفاً من المطبوعات تعيد الى الاذهان ذكريات الاعمال الحربية التي قام بها جنود الامبراطورية بين عام ١٩١٤ و١٩١٨ .

والى جانب هذا السجل التصويري العظيم عن الحرب الماضية نجد اشياء غريبة كثيرة تلفت الزائر اليها وتثير عنايته بها . منها القاعدة التي شيدت في ساحة هوايتهول لضريح الجندي المجهول لاجل استعراض الحلفاء العسكري الذي اجري سنة ١٩١٩ احتفالا بالظفر .

وهنالك ايضاً اللوحة الفرنسية الشهيرة «هنا فردون ممنوع المرور» وهي العبارة الشديدة التي وقفت الهجوم الالماني ولوحات اخرى باللغة الالمانية وجدت وراء الخطوط الالمانية المهملة ، وهذا بعضها معرباً عن الاصل الالماني : « مركز جمع الخيول » . واخرى : « مدخل الحمام والتنظيف من القمل » . واخرى : « الى دمشق » . وبينها ايضاً صورة رجل ذي لحية متناهية في الطول وقد كتب الالمان تحتها : « لا يطيرن صوابك . بل اعجب فقط » .

وهنالك فخ الماني للبشر من الفولاذ ذو اسنان حادة كان الالمان ينصبونه للقبض على الجنود البريطانيين القائمين بدوريات قرب المراكز الالمانية . وهنالك حربة المانية حولها بعض الوطنيين العرب في فلسطين الى «هلال» . وهنالك الاوعية الاولى للغازات الخانقة التي استعملها الالمان فجأة ضد الانكليز والكنديين في ٢٢ نيسان ١٩١٥ وكان هؤلاء غير مستعدين ولا مفكرين فيها . وهذا التاريخ يشير الى اول مرة ظهرت فيها هذه الاداة الاكثر توحشاً والاقل انسانية بين ادوات الحرب الحديثة .

ومن الامور الجوهرية التي يتعلمها الانسان من اول زيارة لهذا المتحف ان بواكر اشكال الدبابات التي استخدمت في الحرب العالمية كانت تدعى « ذكوراً واناثاً » . كما يطلع ايضاً على بعض اساليب التجسس : كيف كانت الرسائل السرية ترسل في السيكار ونعال الاحذية او تكتب بحبر لا يظهر ولا يرى على مناديل معطرة تحملها « الجاسوسات الجميلات » المشهور امرهن اليوم .

وهنالك جناح كامل من المتحف مخصص للنساء اللواتي ساعدن الانكليز على ربح الحرب . وتؤلف هذه النساء جيشاً عرموماً من العاملات في مصانع الذخائر وتركيب الطائرات والاعمال الزراعية وسوق سيارات المستشفيات .

فعندما يفتح المتحف الحربي البريطاني ابوابه مجدداً سيرى شباب لندن الذين عرفوا الغارات الجوية الحاضرة ورأوها رأي العين كيف كانت الاعيب الاطفال تدعى غارات مهمة في الحرب التي مضت منذ ٢٥ عاماً . فان في هذا المتحف صورة مؤثرة لاناس مهرولين الى محطة النفق الحديدي للاختباء عند اقتراب منطاد زبلين من لندن . ويمكن المتأملين في هذه الصورة ان يحولوا نظرهم الى الارض التي تحتها فيجدون ركاماً لمنطاد زبلين نفسه بعد ما سقط محطماً مقهوراً .

كانت المنشورات الصغيرة من اعظم ادوات الدعاية في الحرب الماضية . وقد حاول الالمان بهذه الرسائل المطبوعة اقناع الجندي البريطاني بالقاء سلاحه والمسالمة ، كما انذروا بها الاهالي الفرنسيين بسوء عقبى التعدي على مقتنيات الالمان العسكرية . ولكن اهم نشرة صغيرة بين محفوظات متحف لندن الحربي هي التي ارسلها الاميركيون الى ما فوق الخطوط الالمانية معلقة ببالونات صغيرة يبشرون بها جنود الامبراطور غليوم الثاني بوصول اول مليون من الجنود الاميركية الى ارض فرنسا .

وفي بعض النواحي من المتحف خزانة زجاجية تظهر فيها للعيان امثلة محفوظة عن الالبسة الالمانية وخصوصاً من الاطعمة التي تكاد لا تصلح للخنازير . وقد قيل للجنود الالمان يوم توزيعها عليهم انها تحفظهم اقوياء وتشد عزائمهم .

اجل ان الزائر يجد كثيراً في هذا المتحف مما يستحق ان يرى . ولكن اكثر الموجود هناك بعد مألوفاً . فالرسوم اليدوية والصور الشمسية تمثل اموراً تقع العين على امثالها في هذه الحرب ايضاً . واللوحات الفصيحة الصريحة انذاراً وارشاداً ، لا تختلف في الحرب الماضية عما هي في هذه الحرب من نوعها . والعبارات التي اشتهرت وسجعت بها الركبان كقول المستر هربرت موريسون وزير الداخلية البريطاني «هيا بنا اليها» وقول المستر تشرشل رئيس الوزارة الحالي : « فلنسر معاً الى الامام » ستبقى مذكورة مكررة اعواماً مديدة بعد هذه الحرب . والنساء العاملات في الحرب الماضية لهن اخوات كثيرات في الحرب الحاضرة . وهكذا نستطيع ان نعدد في داخل المتحف : الغارات الجوية ، والملاجىء في الانفاق الحديدية ، والنشرات المنثورة من الجو ، ومواد الاطعمة والاسلحة المختلفة . لكن هذا التعداد نفسه هو ما يتيسر لنا خارج المتحف ايضاً .



نشرت بأذن من مالكتها السيدة فاخوري

المعاهدة الاولى في الاسلام

بقلم صلاح اللبابيدي

◆

ما زلت حتى يومي هذا اتجنب السياسة ولا احب التاريخ ، وقد يكون السبب في ذلك ما علق بخاطري من شعر عنها ، وكثيراً ما كان للادب اثره في توجيه الميول . فقد حفظت منذ عهد بعيد هذين البيتين عن السياسة :

لا يخدعنك هتاف القوم بالوطن — القوم في السر غير القوم في العلن
احبولة الدين ركت من تقادمها — فاعتاض عنها الورى احبولة الوطن

وحفظت عن التاريخ هذين البيتين ايضاً :

وما كتب التاريخ في كل ما روت — لناقلها الا حديث ملفق
نظرنا بامر الحاضرين فرابنا — فكيف بقول الغابرين نصدق ؟

لقد كنت في مقتبل العمر عندما سمعت بمعاهدة (فرساي) يخيل الي ان المعاهدة عقد وثيق يقيد الفريقين بذمة لا تخفر وحرمة لا تخرق ، فما مر على ذلك عهد غير بعيد حتى رأيت كيف تخفر العهود وتنقض المواثيق ، ففجعت بخيالي الاول . وحملني الفضول على البحث عن المعاهدات في التاريخ لمقارنتها بما سمعت ورأيت ، حتى وقعت على المعاهدة الاولى في الاسلام ، فعرفت كيف تحفظ العهود وتحترم العقود ، مما لا نعرفه اليوم ولا نتوقعه في الغد .

لقد عزم النبي العربي الكريم في السنة السادسة للهجرة على زيارة مكة والطواف بالبيت العتيق ، فخرج باصحابه الى وطنه الاصلي . فلما سمعت قريش بذلك جمعت جموعها وقررت صدهم عن هذه الزيارة . وأبى الرسول الا ان يفعل فقام بديل بن ورقا سيد خزاعة في نفر من قومه يسعى لاقناعه بان يعدل عن هذه الزيارة . فاصر النبي اصرار الواثق من نفسه الا ان يفعل ، قائلا : « لم نقدم لقتال احد ولكنا جئنا معتمرين . » واصرت قريش على عنادها فذهبت جهود بديل ادراج الرياح . وسعى بعده ابن مسعود سيد ثقيف وابن علقم سيد الاحابيش للتوفيق بين المسلمين وبين قريش ، فلم يوفقا ايضاً رغم تحذيرها من عاقبة العناد .

ورأى بعد ذلك (ص) ان يوفد سفيراً الى قريش يحذرها البغي بغير الحق ، حباً بالمسالمة وحقناً للدماء . فانتدب لذلك خراشة بن امية الخزاعي ، فعقر ابو جهل ناقته وهم بقتله ، ففر راجعاً الى معسكر المسلمين . فلما علم النبي بذلك زود عثمان (رضه) بكتاب يشرح فيه الغرض من مجيئه ، فاصرت قريش على عنادها ، الا انها سمحت لعثمان وحده ان يطوف بالبيت ، فأبى الا ان يكون في صحبة النبي الكريم ، فغاظ ذلك قريشاً وهاج حفيظتها ، فأمرت بسجنه ، فتناقل الناس الخبر وعظموه حتى وصل معسكر المسلمين ان عثمان قد قتل . فلما انتهى ذلك الى اذن الرسول (ص) قال : « ان كان حقاً ما سمعناه فلن نبرح حتى نناجز القوم . البيعة ، البيعة ، ايها الناس ! » فتوافد القوم يبايعون ، وبذلك هبط الوحي بالاية الكريمة (لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحاً قريباً .)

فلما سمعت قريش بذلك خففت من غلوائها وعمدت الى استئناف المفاوضات مع المسلمين فارسلت سفيرين من قبلها لعقد المعاهدة الاولى معهم ، وهما سهيل بن عمرو العامري وحويطب بن عبد العزى وكانا من العظماء في قريش . وقد تحمس سهيل في نقاشه حتى علا صوته ، فناداه عبادة بن بشر : « ان اخفض صوتك عند رسول الله » . ولما سأله عليه الصلاة والسلام مترفقاً ، عن سبب حيلولة قريش بين المسلمين وبين البيت اجابه : « والله ، لا يتحدث العرب انا اخذنا ضغينة ابداً . ولكن لك ما تريده في العام المقبل . نخرج من مكة وندعها لك ثلاثة ايام . . » فقبل النبي الكريم بذلك تسهيلا لعقد معاهدة يستفيد منها المسلمون راحة وقوة ، ولتكون له الحجة على قريش اذا نكثت بعهدها . وامر كاتبه اوس بن خولة بكتابة المعاهدة ، فابى سهيل ان يكون الكاتب احداً غير ابن عم الرسول علي بن ابي طالب (رضه) فقال النبي لعلي : اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم . » فعارضه سهيل قائلا : « لا اعرف هذا . ولكن اكتب : (بسمك اللهم .) فوسع حلم النبوة هذه المعارضة الحمقاء . ايضاً وقال لعلي : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . » فابى ذلك سهيل قائلا : « لو شهدت انك رسول الله ما صددتك عن البيت ولا منعتك . ولكن اكتب اسمك واسم ابيك . » فترفعت عصمة النبوة عن الغضب وامر علياً بمحو ما اعترض عليه السفير ، ولكنه رضي الله عنه ابى قائلا : « ما انا بالذي يمحوه ابداً » .

وهنا تجلت رحابة الصدر وتؤدة الحلم . فلا علي يقبل بشطب صفة تغلغل ايمانها في قلبه ، فهي امكن فيه من الجبال الراسخة ، ولا السفير يقلع عن معارضته بها ، وقد يكون ذلك سبباً لفشل المفاوضات واهراق الدماء ، وهو ما اراد المصطفى تجنبه رفقاً بصحبه واشفاقاً على اعدائه . فاخذ الصحيفة وقال لعلي : « ارنيه . » ومحاه بيده الكريمة ثم التفت الى السفير وقال : « انا رسول الله وان كذبتموني ، وانا محمد بن عبدالله ابن عبد المطلب . » وعلى ذلك استمر الكاتب في كتابة المعاهدة وهذا نصها :

(باسمك اللهم . هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله بن عبد المطلب سهيل بن عمرو العامري ، على ان تخلي قريش بيننا وبين البيت نطوف به في العام المقبل ، وان من جاءنا منهم رددناه وان كان مسلماً ، ومن جاء قريشاً ممن اتبعنا لا يرد الينا ، وان من دخل في عقد محمد وعهده دخل ، ومن دخل في عقد قريش وعهدها دخل .)

وقد حدثنا المؤرخون بعد ذلك ان المسلمين دخلوا مكة في العام المقبل ، وطافوا بالبيت ثلاثة ايام كما جاء في المعاهدة ، على انهم كانوا الفين عداً ، باسلحة كاملة . وحباً بالمسالمة تركوا اسلحتهم في مكان بعيد عن مكة . ولما انقضى اليوم الثالث امر عليه السلام ان يؤذن في الناس بالرحيل ، وجاءه كثير من المسلمين المستضعفين هاربين من اسر قريش فردهم جميعاً اليها ، رغم توسلهم اليه ان لا يردهم الى قوم يفتنونهم في دينهم ، فكان يقول : « انطلقوا الى قومكم فانا لا نغدر . »

وكان وفاء المسلمين بعهودهم التي قطعوها في معاهدتهم الاولى عاملا قوياً في نشر دعوتهم ، وراحت قبائل العرب تتوافد عليهم رغبة في محالفتهم .

وهكذا كان الوفاء بالعهود شرفاً لعاقديها ، فليشهد التاريخ بعد اليوم انه لا يعيد نفسه .

صلاح اللابيدي

علم الاصوات واللغة العربية

هل استمعت الى اجنبي يتكلم العربية وفكرت في السبب الذي من اجله لا يتلفظ بها كما يتلفظ ابناؤها ، او في السبب الذي من اجله قد يتكلمها اجنبي باكثر طلاقة من اجنبي آخر ؟ وهل تحقق لديك اننا عندما نتكلم نستعمل عضلات خاصة ، وانه ليس من الضروري ان نستعمل العضلات ذاتها ، او بالطريقة نفسها، اذا تكلمنا لغتين مختلفتين؟ وهل لفت سمعك اختلاف لهجات السوري والمصري والعراقي مثلا عندما يتكلمون لغة واحدة : العربية ؟

هناك اناس يتساءلون تلك الاسئلة ويحاولون ان يجدوا اجوبة علمية عليها وهذا العلم يدعى « علم الاصوات » وموضوعه دراسة الاصوات البشرية وكيفية اخراجها ومن اي اجزاء الفم والحلق تحدث الاصوات المختلفة .

لقد زرت حديثاً القسم الخاص بدراسة الاصوات في « كلية الدراسات الشرقية والافريقية » بلندن، ونخال ان ابناء الضاد قد يروقهم ان يعرفوا شيئاً عن هذه الزيارة لسببين : اولها ان العلامة الدكتور طه حسين في كتابه « مستقبل الثقافة » دعى الى انشاء مثل ذلك القسم في الجامعة المصرية ، والثاني هو ان اللغة العربية هي من اصلح اللغات للدراسة من هذه الناحية لانها مستعملة في بقاع مترامية الاطراف ويتكلمها اناس كثيرون بلهجات شتى .

وغني عن البيان ان دراسة الاصوات تتصل مباشرة بالحالات التي تنطق فيها اللغات ، نعني « اللهجات الدارجة » . ففي العصور الاولى ؟ كعصور قبل الاسلام، كان الاهتمام بالكلام بالغاً، ولا اخالكم الا ذاكرين القصائد المشهورة التي كان العرب يتبارون في انشادها في سوق عكاظ وغيرها من الاسواق . لكن بعد ان دونت الاشعار في الكتب، ثم انتشرت الطباعة ، تحول ذلك الاهتمام للالفاظ والكلمات التي تتداولها الالسن الى الالفاظ والكلمات المكتوبة والمطبوعة . ولقد اهتم العرب منذ اجيال بما كتبوه ، واولوه عناية اعظم من عنايتهم بما قالوه او انشدوه ، حتى ظهر بعض الرغبة في دراسة هذه الناحية من اللغة حديثاً ، اذ اخذ فريق من الكتاب يتعمدون ادخال الالفاظ العامية في الاسلوب العربي : ومما يجدر ذكره ان الراديو هو من اهم العوامل التي تعيد الى الكلام او « اللفظ » شيئاً من رونقه واهميته الخاصة . وفي كلية الدراسة الشرقية والافريقية بلندن يستعين الاساتذة كثيراً ، لتدريس اللغات واللهجات المختلفة ، بالاسطوانات المسجلة . فهم يسجلون مثلا النطق الصحيح لمصري يتكلم بالعربية على اسطوانة خاصة ، ثم يسجلون النطق الخاص بالطلبة الانكليز الذين يتعلمون العربية على اسطوانة اخرى ، ثم تدار كل اسطوانة على حدة فيتسنى للطالب حينذاك ، ان يقارن بين نطقه والنطق الصحيح ، ويعمل على تمرين عضلات فمه وحلقه ولسانه كي يتمكن اخيراً من تعود ذلك النطق . ويوجد في المدرسة مكتبة خاصة ملأى بمختلف الاسطوانات ، يتردد عليها الطلبة لسماع النطق الصحيح وغير الصحيح للغة التي يدرسونها .

ويؤخذ عادة لكل طالب تسجيل خاص من نطقه قبل مباشرته دراسة اية لغة اجنبية ، وتسجيل آخر بعد ان يكون قد انجز دراسته ، فيتعرف بذلك الى النواحي التي أتقنها ، والى نقاط الضعف التي تجب معالجتها .

وليسوا يعنون في تلك المدرسة بمواضع التخفيف والتشديد فحسب ، بل يعنون ايضاً بدراسة توافق النغمات المختلفة في اللغة التي يدرسونها . ومن الابحاث الحديثة التي توافرت الجهود عليها في الاعوام الاخيرة تحليل اللهجات المختلفة في اللغة العربية . وقد شاهدت عدداً غير قليل من الصور الفتوغرافية التي اخذت بواسطة اشعة اكس لعضلات الفم واللسان اثناء النطق بالحروف المتباينة ، لتمكن بذلك معرفة الصعوبات التي تعترض الاجانب حينما يحاولون النطق باية لغة غير لغتهم الاصلية .

ويوجد الان طريقة دولية خاصة لكتابة وقراءة اللغات المختلفة ، وهو نوع جديد من الحروف الابجدية الصوتية الدولية ، اي حرف خاص بكل صوت من الاصوات ينطق به في اية لغة ، يضاف الى ذلك طريقة اخرى تعرف بها مواضع الشدة والتخفيف والنغمات في النطق بكل كلمة ، وذلك باستعمال تنقيط خاص وعلامات متواضع عليها . وبهذه الطريقة ، في وسع اي كان ان يقرأ اية لغة اجنبية قراءة صحيحة .

وقد يكون من المستملح ان اروي لكم نادرة طريفة حدثت لي خلال زيارتي ذلك المعهد . كانوا يسجلون كلام رجل يتكلم بلغة اهل سيام، وخيل لي ان هذه اللغة من اصعب اللغات على النطق . لكن لشد ما تعجبت عند ما اعادت سيدة انكليزية كانت تصغي الى ذلك الرجل وتدون ما يتفوه به بتلك الطريقة الدولية التي اشرنا اليها، ما قاله بالحرف الواحد، ناطقة به نطقاً صحيحاً . فسألتها مازحاً اذا كان بوسعها ان تكتب بيتاً عربياً بالفاظه المتنافرة وهو البيت المشهور :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

فكتبته ونطقت به بعد كتابته نطقاً صحيحاً واضحا . ثم طلبت اليها ان تكتب بيتاً اخر وهو :

وازور كل من كان له زائر   وعاف عافي العرف عرفانو

فكتبته وقرأته بكل سهولة، وتيقنت عند ذاك انه يمكن بتلك الطريقة الدولية الحديثة كتابة وقراءة شتى الاصوات في اية لغة كانت بوضوح وجلاء .

ويبلغ عدد اللغات المتدارسة في ذلك المعهد العلمي نحو مائة لغة ، ولديهم ١٢٠٠ اسطوانة ونيف سجلت عليها تلك اللغات المختلفة ولهجاتها . وعلى كل اسطوانة بطاقة مرقمة مصنفة تسهل الرجوع اليها كلما قضت الضرورة باستعمالها .

ومن دواعي الابتهاج ان احد الشبان المصريين من خريجي كلية الدراسات الشرقية والافريقية قد انجز منذ عهد قريب جزءاً قيماً من دراسته في فرع دراسة الاصوات واللغات ، وكان موضوع الطروحته التي نال بها اجازة الدكتوراه هذا : « المميزات النحوية للغة العربية كما يتكلمها المصريون . »

وانا لنتمنى للجهود التي تبذل في ذلك المعهد العلمي كل نجاح ولا سيما ما كان منها متصلا باللغة العربية .

(مقتبسة من خطبة لاحد المستشرقين البريطانيين)

ليلة العمر

بقلم احمد عبد الجبار

◆

هتف الكون وغنى بالنشيد العلوي
وانتشت دنيا الليالي بالقصيد العبقري
انفس تصبو وارواح على الناي الشجي
هدهدتها خمرة الاحباب في الكأس الوضي

كلما وقعت لحني ردد الموج صداه
ورنا «صنين» يشكو للروابي ما عداه
وفؤادي يتلظى من غرام قد براه
الهوى يا قلب بحر لست تدرى منتهاه

•

موكب للحور يمشي فوق هامات الزمان
حوله الانجم طافت وشعاعات الاماني
وسرت في اثره رعشات للاغاني
ثمل النور عليها وزهور الاقحوان

سامر الحي دعانا والصبايا الخفرات
والهوى العذري فينا ارقصته النغمات
يا حبيب القلب غنِّ وتغني يا حياة
مزهر الشعر شجاني وشجتني الذكريات

•

موكب من عالم الليل واحلام الصباح
رنحته نغمات الحب في كف الرياح
فجميل في غدو وجميل في رواح
قبلة الله عليه والهوى فوق الوشاح

يا حبيبي طاب في الليل لقانا وهوانا
وتلاقت في دجاه بخشوع مقلتانا
نظرة تمتمها الوجد فباحت شفتانا
يعلم العشاق ما فيها ويدريها بكانا

•

موكب للقلب زفته الاماني النضرات
الدنى فيه سكارى والعذارى مرحات
رقص العمر به وحدا فيه الحداة
وارتمى اللحن فغنته القوافي الثائرات

ما لهذا الحب يا قلبي لا تنتضب ماؤه
خفق المزمار لا يخبو على الذكرى نداؤه
كلما الشوق تمادى هزه في الشوق داؤه
و له احمده اليأس واحياه رجاؤه

•

موكب الفرحة والسحر واعراس الليالي
هومت فيه السواقي وشدت فيه الدوالي
ليلة لبنان فيها سامر ضاحي الهلال
والزمان البكر فيه حلم طيف من خيالي

كل طيف يتراءى كخيالي في التمني
يا حبيبي هذه ليلتنا هيا نغني
انت في فكري احلامي وفي دنياي فني
يا حبيبي ان حبي زورق يبعد عني

احمد عبد الجبار

البيان

العلامة غوستاف لانسون (١)

معربة بقلم محمد روحي فيصل

— ١ —

يذهب « جوبير » فيما يذهب اليه من الوان النقد الى ان الالفاظ لا تقصر عن اسباب المعاني ، ولكن المعاني هي التي تقصر عن اسباب الالفاظ ، فما يكاد المعنى يبلغ طور الكمال ودرجة التمام حتى ينبثق اللفظ المصطفى المختار الذي يشف عنه فيكسوه ويمثله . وهذا صحيح كل الصحة ، وما فيه ادنى ريب ، ولكنه لو علمت لا يدل على امر كبير ، ولا يسفر عن رأي خطير . فما دمنا لا نستطيع ان نفكر الا بواسطة الالفاظ بل ما دمنا لا نستطيع ان نفكر الا الفاظاً تتفاوت فيما بينها من حيث الوضوح والتمثيل ، فان بلوغ المعنى طور الكمال وايصاله درجة التمام يعني التفكير في اللفظة التي تكشف عنه بكامله ، وتنطبق عليه بحدوده . فالقولان على هذا مترادفان ينوب احدهما عن اخيه ويمثله في الاتجاه او يساويه في الغاية ، والصعوبة كل الصعوبة تبدو في الوصول الى هذه المرحلة الاخيرة حين يكتمل المعنى في اللفظة التي تخصه هو من دون غيره والتي ينتهي عندها بنفسه .

الحق ان العبارة هي جهد المبين ، وغاية الابداع ، ونتاج العبقرية . واول ما يقوم به العقل في هذا السبيل هو الطواف في كافة جوانب الموضوع الذي يبحثه ، والسؤال عما يعرف من طريق التجربة التي قام بها مَن نفسه او من غيره . ويثري العقل على هذا ايما اثراء ، فيدخر جملة صالحة من الخواطر المبهمة التي تغيم ولا تصفو ، ويختزن جمهوراً كبيراً من المعاني المركبة التي تتعقد ولا تستقر ، وما يكاد يقيس المسافة التي يجب ان يخطوها او يقدر الموضوع الذي يريد ان يجلوه ، حتى يوزع هذه الخواطر المدخرة والمعاني المختزنة ، وقد اتضحت وتحددت ودقت بمجرد استعدادها للعمل وظهورها في النور .

والى هنا كان عمل العقل خاصاً به لا يشركه في ذلك شريك ولا تنازعه غاية . ففكر لحسابه وقدر بالفاظه ، وابان بجمله . كانت « لغته » طائرة موجزة كالايماءة ، مجهولة غريبة كالرؤيا ، لا يعرف القصد منها الا حملتها ، ولا يميز المعنى فيها الا نقدتها . فلو ان احدنا جرد من نفسه الذاتية شخصا معنوياً يراقب مجرى خواطره الباطنة حين يمضي في العزلة ويفزع الى الوحدة ، لرأى اننا لا نفكر على نحو ما يفكر الناس ، ولا نجري في الطريق المستوية المألوفة ، فان سرعة المفهوم وومضة الخاطر تخلقان في كل لحظة من لحظات التفكير لغة جديدة رمزية مختزلة هيروغليفية ، تأخذ الالفاظ فيها معاني ملتوية شاذة متأبدة ، فتأتلف حسب اهواء الذاكرة العابثة ، وتطرد على غير الصرف الذي نعرفه ، والنحو الذين نعربه ، والبيان الذي نتذوقه . . تلك لغة طائفة لم تسترح ، والفاظ محرفة لم تستقم ، ولو اننا انتزعنا جانباً من هذه الالفاظ وتلك اللغة ، ورحنا نمعن النظر فيه لوحده ، لرأينا انفسنا على حالها المضطربة الغامضة ، وما درينا اي شي . نقول ولا الى اي امر نشير .

اجل ، الى هنا كان عمل العقل خاصاً به ، فتلك خطوته الاولى في سبيل البيان يقوم بها من نفسه ولنفسه ، ويجي . الان دور العمل للآخرين : فانما ينبغي ان نفكر لحسابهم ، ونقدر بالفاظهم ، ونبين بجملهم . وما يتم كل هذا الا بقلب اللغة الخاصة الى لغة عامة ، والا باكتساء الخواطر والعواطف اثواباً تتبينها كل العقول وتهش لها كل النفوس . والامر الى ذلك معروف ميسور : نضع « عبارات » واضحة يفهمها الناس مكان « العلامات » التي كانت من قبل عنواناً للفكرة اكثر مما تكون مرآة لها ، وفي ذلك تنتهي مرحلة الابداع الفكري ، ويبدأ عمل الاسلوب الانشائي . فالاشياء التي تتشابه تقترب من بعضها وتلتصق بحدودها وتدق في مفهومها ، والالفاظ التي كانت تكسوها في دنيا العقل تتوارى لتأخذ مكانها الفاظ جديدة اقدر على الابانة من سابقاتها ، واسطع منها نوراً ، واشد تصويراً . والملحوظ ان الفكرة اذا تبدل لفظها وشكلها تبدل هيكلها وكيانها ، والى ان يتم هذا التبديل المزدوج تجري الفكرة واللفظة معاً على قدم المساواة نحو اسباب الكمال ، ولن تكون الفكرة كاملة واللفظة تامة الا حين يخرجهما الكاتب الى حيز التنفيذ ، ويسجلهما على بياض القرطاس ، لان الرأي الذي لم يكتب انما هو رأي « بالقوة » من دون « الفعل » يبقى ابداً تحت رحمة الاحتمال ونسبة الامكان ، ولن يستقر موضعه المخصص له ، ويأخذ وضعه المحدد به ، الا بالكتابة .

ان اللفظة مقياس الفكرة ، فمن كتب خواطره فانما يتمم خلقها ، وان شئت فقل ان الرأي لن يكتمل الا حين يعد مقروءاً

(١) مؤلف « تاريخ الادب الفرنسي »

على الورق ، ويرف مشكولا بالمداد .

يقول الناقد هيبوليت تين في رسالته عن لافونتين: «... والحق ان شأن الالفاظ غريب ! فما طبيعتها قبل كل شيء ؟ ايها قادرة على التصوير، وايها عاجزة؟ بأية اعجوبة استطاعت احرف اربعة ان تدل على حمار ، واحرف ثلاثة على كتاب ؟ كيف السبيل الى اختيارها واصطفائها ، والى تزاوجها واطرادها ، بحيث تكشف عن الاشياء والاوضاع والمعاني ؟

الاصل في الالفاظ الحياة ، اعني انهـا كانت تزخر بالشعور ، وتموج من الفكر، يوم نشأت لاول مرة في الوجود، وجرت على لسان رجل الكهف ، يشير بها الى ما يحيط به ، ويضع فيها العواطف والخواطر التي تدور بخلده ونفسه . بل لقد كانت قديماً من الحياة بحيث تضارع اهتزاز اوتار الكمان الشجي ، او تشبه نمو برعم الزهر الطرير . ذلك انها تفجرت اول ما تفجرت من قلب الطبيعة وروح الاشياء ، فحاكت الحيوان وقلدت الانسان حين يبسم او يرق او يعبس، وحين يزوي بانفه ويتنفس بصدره ويتغنى بحنجرته . وما تزال على حالها حتى الساعة ، بالرغم من مرور الزمان على مولدها، وكرور الايام على استعمالها ، تحمل الان موكب التقليد للطبيعـة ، ومعالم المحاكاة للاشياء . فما تكاد تضطرب على طرف اللسان او تقطر من شق القلم ، حتى تعود الى وظيفتها الاولى من الحيـاة ، وتكشف عن معناها الاصيل .

« يا عجباً من اللفظة الواحدة كيف تخلق في نفس المرء عالماً من الاحساس ودنيا من الصور؟ افلا تراها بربك اذا احسن اصطفاؤها وانزلت موضعها من العبارة، تعمل عمل السحر في الجمال، وتقوم مقام النظر الشخصي الى الاشكال والالوان ؟ ان العبارة الانشائية لتبدو جذوة من نار متأججة اذا اطردت الالفاظ فيها على هذا النحو من حسن الاختيار ودقة المكان . انها لا شك تلهب الخيـال بقوة احراقها ، وتصور المعاني على وضح نورها . وتنحصر عبقرية الشاعر في تنسيق الكلم وفن الالفاظ ، لان المعنى اذا قـام في نفسه ، والشيء اذا تبدت صورته، لا يتطلبان اللفظة الصحيحة «الصادقة» فحسب ، وانما يتطلبان اللفظة الموهوبة « الطبيعية » ، اعني العبارة التي تنفرج عن نفسها وتنبثق من ذاتها ساعة يقوم المعنى في النفس، وتبدو صورة الشيء . »

— ٢ —

تربو الالفاظ لخصوبتها على المعاني الى حد بعيد، وتني لمرونتها بكل حاجة من حاجات الاداء والاعراب، فلا تقوم في النفس خلجة مهما استسرت ، ولا خطرة مهما استدقت ، الا وتقع من فورها على الكلمة القوية التي تنفض جملة حالها نفض تصوير واحاطة ، ثم تمشي في اطوائها كما تمشي الروح في اطواء الجسد لا تبرح مجاورة لها عاملة معها حتى تصير الى نوع مادتها على تعاطف والتحام . ذلك ان للغة من القدرة على حمل اجزاء النفس وابعاض الشعور ما تقوى معه على كشف الدقيق من خافيات الخواطر، والسريع من حركات العواطف، حتى في الحالات التي يمحي منها العقل المراقب والحس المحلل لاتعدم المبهمات من الاراء والاهواء تعابير مبينة قوية على البيان قوة تدعو الى العجب والدهشة، كأن الكلمات تنهض بالمعقول الذي لايدرك، وتحدد اللانهاية التي لا تحد. فما كاد باسكال يمعن في سعة الكون، ويتعب خياله من فرط التصور ، حتى امدته اللغة بعلامات قادرة على التمثيل والبيان فقال : « الكون كرة ليس لهـا حدود ، مركزها في كل مكان ، ومحيطها في الفضاء » . وهذه عبارة كما ترى خالية خاوية ، ولكنها مع ذلك واضحة مفهومة ، فهي ضرب من المعادلة الجبرية التي تخضع ما لا ينتهي لقواعـد الذي ينتهي ، والتي تقيس ما لا يقاس بهذا التأليف العـارض بين شتى العبارات الايجابية والسلبية .

كيف استطاعت اللغة ان تظفر بالمرونة البيانية على هذا المقياس الواسع ؟ ان الافكار كثيرة لا حصر لها ، ولكن عدد الكلمات محدود ، فما في معجم الاكاديمية الفرنسية اكثر من سبعة وعشرين الفاً من الالفاظ، وهذا ما يدعو الى التساؤل عن مأتى الطاقة اللغوية في الاداء ، لان المعاني من ذوات التعادل الثابت في الكلمة الواحدة من كلمات المعجم ضئيلة ضالة واضحة لا تني بالمراد ولا تلتئم مع المظهر الخصب للثروة الادبية في لغة الامة .

جاءت مرونة اللغة من عملية بسيطة معقدة في آن واحد: جاءت من « التأليف » بين الالفاظ والالفاظ . لقد تحمل اللفظة معناهـا الضيق الذي يدل عليه المعجم ، وتصطبغ الكلمة باللون المحلي الذي يسطع بين الاحرف ، فما تجتمع اللفظة الى اللفظة ، وتنتظم الكلمة مع الكلمة، حتى تنبثق من الاجتماع والانتظام سلسلة من الاضواء المتعاكسة المتجاوبة التي تكشف المعنى او المعاني التي يتطلبهـا الكاتب من وراء الكلام . وبهذا التركيب وحده تنغمر الثغرات التي خلقها المعجم بين حدود الالفاظ ، وتنجلي اللغة عن اللدونـة التي لا حد لها في عرض المتداخل الدقيق من الخوالج والخواطر .

وسر البيان من اوله الى آخره، على روعته وتساميه، عائد الى نوع المزاوجة بين الكلمات مما هو متروك من قديم الزمان للحاسة الفنية والملكة الموهوبة.

ان مفردات اللغة في المعاجم كالحجارة في مقالع الارض، من يأخذها على حجمها الناشز ووزنها الجامد ثم يضعها كما يضع البناء حجارته بعضها الى جانب بعض على طبقات مرصوفة مرصوصة، لا يكتب بغير القلم الشحيح البطيء الثقيل، وبيانه محروم من الطراءة والرشاقة والدقة. ذلك ان حرارة الاسلوب لا تستوي على الوجه الساطع الا بعبقرية التأليف بين الالفاظ من حيث نطالع المرونة واللدونة في ثناياها. فمن يفوته هذا بالفطرة الاصيلة او بالدرس الصابر يفوته سر هذه العملية الكيماوية التي تمزج الكلمات مزجاً يبدل من لونها وعطرها وصوتها وطبيعتها، ويظفر بالوحدة المتجانسة البسيطة التي تأخذ العناصر المشتركة في انشائها خصائص حديثة ليست تمت بنسب الى القديم الذي كان لها في بطون المعاجم.

وماذا في بطون المعاجم غير الكلمات في معناها الحقيقي وشكلها العام؟ ان علماء الحيوان والنبات يصنفون الانواع حسب الخصائص المشتركة فيما بين الافراد، ثم يهملون ما قد يكون الى جانب هذه الخصائص المشتركة من خصائص اخرى كثيرة يتفرد بها كل عضو من اعضاء النوع الواحد من مثل اللون والطبع وما الى هذا من مزايا هامة. هكذا عالم اللغة لا يحدد من معنى الكلمة او من معانيها الا الجانب العام مما تواضع الكتاب على منحه واثباته فيما يكتبون، والى هذا ينبغي ان تضاف الى الكلمة عند التحرير قيم اخرى تنشأ من مجرد الدخول في جملة من جمل الانشاء والتركيب. والعالم اللغوي في هذا كالعالم الطبيعي، مهما استقرأ عدد الخصائص، وتقرى مواضع الامتياز، فهو لا بد واقف عند حد من الحدود العامة التي تجمع شيئاً وتمنع اشياء. ومن الواضح الا يفعل العالم اللغوي غير هذا، لان مرونة الكلمة وفعاليتها المعنوية شيئان لا يمكن ان يجتمعا في بطون المعاجم، واذا اجتمعا فلن يكون هنالك غير الفوضى في المفهوم والاضطراب في المعنى مما تضيع معه رسوم اللغة الواضحة المستعملة.

لئن كانت الكلمة جامدة المعنى في المعجم، فلن تكون كذلك في البيان. فقد تغمر خصائصها او تمحي معانيها او تتسع آفاقها او تسطع مزاياها، بل لقد تبدل الكلمة من حقيقة الشيء الذي تصوره تبديلا كبيراً، فتغير من شكله او تضع من شأنه او تعظم من قدره حسب ما يرضي المبين عند البيان، وكل هذا واقع تحت اقلام الادباء في كل لغة من لغات الناس. لشد ما نذكر اسم «الله» في كل يوم فلا نفكر فيه تفكيراً سريعاً ولا تفكيراً عميقاً، فما يكاد ماسيون يقول: «ان الله وحده عظيم» حتى يثب اسم الله للاذهان كما هو على جماله وجلاله في القلوب. ولشد ما نرى «السراج» يتوهج في الليل فلا نمنحه معنى ولا امعانا، فما يكاد جوديل المتحضر يصرخ في وجه المليك الذي خدمه وما غداه: «ان من يستعمل السراج فلا اقل من ان يضع فيه شيئاً من الزيت».. وما يكاد لكونت دي ليل يقول من قصيدة له: «القمر الشاحب وهو يضيء العراء يضطرب محزوناً كما يضطرب السراج الكئيب».. وما يكاد باسكال يدعو الانسان الى النظر في الشمس: «هذا الضوء الساطع في الفضاء كالسراج الخالد ينير جوانب العالم» — ما يكاد هؤلاء الكتاب يذكرون «السراج» في هذه الملابسات البيانية حتى نتمثله في ثلاثة اجواء من المعاني قد اختلفت فيما بينها لاختلاف الوسط من الكلم المرسل الذي وقع فيه اسم السراج!

ارأيت الى الفرق بين الكلمة الميتة في المعجم، والكلمة الحية في الادب؟ ارأيت من اين جاء سر البيان المشرق الخالد على الدهر؟ اعرفت الآن لماذا يهيم المبين باللفظة هياماً لن يعرف مذاقه العالم من علماء اللغة ما دام بين الحجارة محصوراً؟.. ان في الكلمات قيماً سواحر لا تأتي الا من المكان والجوار كانما هي تتكون مما يغشاها من الاضواء والالوان فتمتد او تتجمع حسب ما اعطي لها من الحيز البياني الذي ينمي مرونتها الطبيعية، ويولد من معناها الاصيل معاني جديدة لم تكن لها من قبل. وهذا من بعض الاسباب التي تقضي على النظرية القديمة في «الاسلوب النبيل» قضاء مبرماً لا قيام لها ابداً، لانها تعزو الى الكلمات درجات من الطاقة ثابتة، وتنكر عليها النفاذ المتعاكس والاتصال الحساس مما يحرمها من فضائل ما يحيط بها من الجو البياني الرفاف. وهذا ايضاً مما يجعل الشعر الجميل يستمد الفاظه من الفاظ الناس، كأن «قبضة من الكلمات العادية، قد اجتمعت بشكل عادي» كما يقول تين تستطيع ان تهز النفس وتنحدر بها الى الاعماق.

لعلك تعرف لغات تضارع الفرنسية ان لم ترد عليها في اللمعان والاهتزاز، فاذا اخذتها من المعاجم لم تجد الا الفاظاً مغبرة هامدة

خرساء لا تبين ، وما يكاد الخيال او البيان يؤلف بينها في سمط من الكلام حتى تشب شبوب النار بعد الهمود ، وتتطاير منها شرارات الخواطر قوية لامعة . وفي اللغات الاجنبية كلمات يحول جمالها وموسيقاها من دون الفكر ان يسطع ويبدع ، اما الكلمة الفرنسية فكتابية اللون لا تنفض غير المعنى الواضح الذي يجمع رسالات النفس، ويحقق مطالب الاداء، وفيها طلائع الانسجام والنور والحرارة ، وباستطاعتها ان تنفرج عن اللهب الطريف المتحرك الوهاج ، على الرغم من دقة تحديدها الذي لا يفسد ولا يظلم . وما تمنح الكاتب ثروة الثروات ، ولكن الكاتب هو الذي يمنحها الثروة ، فما يعتمد عليها الا من احسن قيادتها وظفر بالسيادة عليها . وبعض اللغات تنهض برجالها من الادباء ، وتذهب بمعانيها اشد الخواطر فيهم فقرا ، اما الفرنسية فتدع للضعفاء ضعفهم ثم تسلس للاغنياء القادرين على مسك الزمام من البيان .

— ٣ —

« انت الذي تستطيع الصعود وحيداً الى السماء ، فلا تتسلق قلل الجبال ، والى اودية الارض تهبط ، فلا يزل بك الجناح ولا تقع ! » .

هكذا قال الشاعر سولي برودوم للسنونو الطائر ، أرأيت الى « السماء » في الابيات كيف تبعث في كل الاذهان عالماً من الصور لا يتغير : فضاء رحيب عميق ليس له حدود ، ذو لون ازرق كثيف او ابيض كالحليب ، قد غمره شعاع الشمس او غشيته الغيوم ؟ ولكن الالفاظ ليست كلها من طراز السماء ، فما يطير الخيال بجناح فرد كما طار حواليها ، لان الناس يختلفون في فهم اللغة وفي الامزجة والعادات والمهن اختلافاً شديداً لا توحي معه الالفاظ الى اذهانهم صوراً متقاربة او متجانسة . فقد يقع « البحر » في سمع الفتى الباريزي فاذا هو الفصل البهيج ، والشمس المشرقة والحياة الحرة ، والاستحمام الصاخب ، والهواء الطلق ، ثم اللعب في الظهيرة ، والرقص في الاماسي ، وما الى هذا مما يتصل باسباب اللهو المترف ، وقد يقع في سمع الصياد فاذا هو الصديق الغامض والعدو الواضح ، او هو خبز اليوم وموت الغد ، كأن في طيات امواجه كل حياة هذا البائس العائش من فتات القدر وعبث الزمان . وسنابل القمح يراها الفلاح فيحلم بما قد تدر عليه من مال ، ويراها الرسام فيحلم بما قد ترفده من صور . والارانب لا تحلو الا في عين شاعر كلافونتين ، اما الحطاب في الاحراج فما يحبها لما قد تقرض له من اصول الشجر واغصان النبات .

وكذلك تختلف قيم الالفاظ باختلاف الاذهان التي تقع عليها، كأن بها قوة تولد من المعاني المتباينة ما لا تنطوي عليها من قبل الا بمقدار . وقد جاء هذا التوليد من ان الالفاظ لا تبدل ما فيها من الذخيرة فحسب ، وانما تسحب وراءها الى ذلك طائفة من الافكار كانت مضمرة بالفاظ اخرى . وتمشي الخواطر في اثر الخواطر ، وتتعلق الكلمات بذيل الكلمات، ثم يتألف من هذا التسلسل الجميل موكب من البيان الرائع يتهادى على اساس من التصور وضوء من الجرس . ومن هذا التداعي المتكامل تنبثق الثروة الفكرية للالفاظ ، على الرغم من معانيها المحدودة التي تحتفل لها المعاجم ، وتزخر بها اللغة . على ان انواع التداعي اشتات، فمنه ما كان عاماً يهيج الاذهان الى دنيا من الصور لا تتبدل ، على نحو ما ذكرنا من شأن «السماء» ومنه ما كان خاصاً باناس دون اناس مما يتصل باحداث الحياة والوان المزاج: فقصر « التويلري » اذا كان يوحي الى الخاطر تلك الهضاب من الخضرة البهيجة ، وتلك التماثيل المستترة بين الاوراق الكثيفة ، فهو يوحي فوق ذلك صورة القصر العامر او صورة الطلل البالي ، هذا يتمثل قوافل الاضياف المتحدرة الى ابهائه فيما غبر من الزمان ، ومفاتن الايام المسحوبة فيما سلف من التاريخ ، وهذا يتمثل ضروب الالاهي التي تقضت بين خرائبه في ساعات الطفولة والشباب . كذلك « المعركة » تبعث الخواطر الشتيتة عن هولها وتسعر نارها ، ولكن الجنود الذين شهدوا افاعيلها بانفسهم يضيفون الى صورتها العامة صوراً من الخواطر يجهلها الذين لم يشهدوا هول الحروب الا في لوحات المتاحف ورسوم الكتب . ثم ان للجندي من هؤلاء الجنود ذكريات خاصة عن الوان الرعب وفنون الاسى مما تهتاج لاجلها نفسه كلما مر للمعركة ذكر في حديث او جرى لفظها على بال ، كأن يتمثل دوي قنبلة تنفجر او انة جريح يحتضر او نظرة عدو يغلب او ما شابه هذا من مشاهد باكية يتفطر لها قلبه من دون القلوب .

تجر اللفظة وراءها كما ترى موكباً من الصور المتداعية على هون . ولو استطعت ان تفصل بين الكلمة ومعناها ، لرأيت انها لا تسحب في اثرها شيئاً من الخواطر والعواطف وانما تسحب اشتاتاً من الكلمات بفعل العادة والاستعمال . وذلك ان اللفظة اذا ارتبطت باخرى او

دخلت في جملة، وطال امدهذا الارتباط والدخول، لا تأتي لوحدها اذا ذكرت في الذهن او وردت تحت القلم ، وانما تأتي مصحوبة بما كان يواكبها من الكلام على الزمان. وقد اعتاد الاباء والاسلاف ان يشدوا الفاظا الى الفاظ كلما ارادوا ان يعبروا عما في نفوسهم من الافكار . وينحدر هذا البيان المشدود الى الاعقاب ، ويحفر في اذهانهم ، ويستطيل في خيالهم ، حتى اذا تكلموا كان كلامهم بجمل السلف، فما ينطقون بلفظة حتى ينطقوا بالفاظ والفاظ من غير شعور. ومن هنا كان اثر هذه القوالب الجامدة التي تسمى «كليشات» عظيماً قوياً في الاذهان وعلى الالسن والاقلام. ومن هنا ايضاً كان من العسير على بعض الاسماء ان تنفصل عن بعض النعوت او بعض الافعال مما كان الالتحام بينها شديداً من فرط الاستعمال وطول المصاحبة. والظاهر ان كل لغة من اللغات لا تخلو من امثال هذه «المستحضرات» المهيأة للبيان، وهي مظهر التحجر اللفظي في علاقات ثابتة لا تتطور وفي الفرنسية شيء منها لم يسلم من هزء الناقد الكبير بوالو !!

لقد يرسل الكاتب كلامه على جمل قد ارتبطت فيها الالفاظ ارتباطاً خاصاً حسب مقتضيات الاسلوب. ويقرأ القارؤن ما خطته يداه فاذا هم متأثرون ببيانه، محاولون اجترار ما انشأ من العبارات. وقد يسري كثير من تراكيبه على الالسن سرياناً يختلف قوة وضعفاً حسب شهرة الكاتب ومكانه من البيان. ولعل المنشئين البادئين في الانشاء هم اكثر الناس انسياقاً وراء اللفظة من الالفاظ قد وقعت تحت الاقلام موقعاً حسناً موفقاً ، يترصدونها لهذا الجو القوي الذي غمرها، حتى اذا ارسلوها انطلقت معها ما تقدمها ولحق بها من الكلام وهم لا يعلمون ، فاذا المعاني لا تطرد على تلاحم من غير ثغرات ، واذا النشوز البياني باد لكل قارىء من القراء . وربما كان اكثر التضمين والتمثيل الشعري من هذا القبيل !

وليس من ريب في ان انسحاب الكلمات وراء الكلمات يرفد الكاتب ببعض الوان المعونة الرفيقة ، ولكن اغلب ما يدور القصد البياني عليه ليس تسلسل الالفاظ وانما هو تسلسل الخواطر والصور من حيث يستطيع الكاتب ان ينقلها الى لغته بنفسه. واكثر ما يحدث في هذا الباب ان الكاتب ينساق مرغماً وراء التداعي اللفظي ولا يقوى على دفعه بحال من الاحوال. وليس من خطر اعظم من هذا، لان الفكرة اذا وقعت على الجملة المهيأة او « الكليشة » فقدت جدتها واصالتها فبدت كانها جدث ميت او طلل متهدم. والسهولة العجيبة التي قد نحس بها عند البيان مصدرها في اغلب الاحيان تداعي الكلمات تحت القلم حسبما ائتلفت بالعادة في جمل مرصوفة من قبل، فما نصنع في مثل هذه الاحوال غير تسجيل الكلام المسحوب تسجيلا آلياً مكنياً. واذن فلسنا نحن الذين نتكلم وانما هي الالفاظ تملي علينا من خلال منشأتها الجاهزة ما اراد الناس لها ان تتكلم . وليس في مقدور كاتب ان يدعي القدرة على الانفلات من روابط الكلمات بعضها ببعض مما انشأه الذين سبقوه من الناس الى الكلام ، ولكن في مقدور الكاتب ان يصطنع المراقبة الدقيقة لكل ما يقول، ثم لا يضع الخاطر الجديد من خواطره تحت رحمة التداعي اللفظي القديم. ومن الضروري الذي لا مفر منه ان لا يستجيب الكاتب لدواعي الالفاظ من ذوات الجرس الواحد المجلوب ، وانما ينبغي له ان يطرد من ادبه كل ما يسر الاذن ولا يهز النفس ، وان يترصد ملابسات المعاني مما يقسر الكلمات قسراً على التسلسل الواضح والجمالية القوية .

على ان طاقة الالفاظ على ان تسحب وراءها اشتاتاً من الخواطر والصور هي من الاهمية في الانشاء بمكان غير منكور ، لان الفن اذا احسن توجيهها واستخدامها كان الاسلوب نافذاً سامياً ، وكان الكلام قوياً اسراً . وعلى قدر هذا الاحسان يكون التفاوت بين كاتب وكاتب ، وبين شاعر وشاعر . والا فحدثني بربك من اين تسربت البرودة والفسولة الى خطبة رفافة الاحساس، دقيقة التركيب، محكمة النسج؟ لقد اتاها الضعف من جانب الكلمات التي استهدفت غرضاً مقصوداً، فما كانت للذهن عوناً على الانحدار الى ما وراء المعاني، ولا فتحت له آفاق النظر الى الاشياء المستسرة . لقد كانت عبارة الخطبة واضحة مفهومة ليس لها عمق ولا قرار ، فتبدت ثروتها على ظاهرها وما احتفظت بشيء منها في الخفاء ، وما كادت الاعين تتصفحها دفعة واحدة حتى فترت وطار منها الشوق البعيد من مدى المجهول. كانت الخطبة بحاجة الى العبارة التي تنفرج من ثنايا الفاظها طوائف الصور واسراب الخواطر مما يلهب الذهن ويحيل قراءة الاعين اللاهبة الى نوع من الرغبة النهمة في استجلاء خوافي النفس .

ولا تظنن ان الكلمات الجزلة المتاوجة الرنانة هي التي تمتاز بالايحاء الخصب ، فان للبساطة والتجريد اثرهما في العبور من معاني الالفاظ الى ما يتصل بها او يختبىء وراءها من الافكار . نقول التجريد ، لان الكلمات المجردة على الرغم من استحالة التمثيل لخصائصها من غير تشخيص ولا تجسيد، تستطيع ان توحي بما يضاعف

من قوتها وبما يحمل الذهن الى ما وراء مدلولها الحرفي . ومن الخطأ الواضح ما يقول به بعض الكتاب من ان الكلمات المجردة تحرم الاسلوب من الحياة والنضارة . ولئن كانت هي كل بضاعة الفيلسوف والعالم عند البحث ، فانها لتبعث ما يمت الى طبيعتها من الخواطر الصافية المتسامية عن المحسوس . وفي الشعر الحديث كلمات مجردة كثيرة قد القت الضوء على قوة الجذب للعواطف ، ومدى الاهاجة للخواطر ، وكذلك النثر يعود نفاذه وعمقه الى هذه الكلمات المجردة التي لا تحبس الخيال في اطار الحقيقة وانما تطلقه حراً يطير في الاجواء والافاق على هواه .

وقوام الامر كله في الالفاظ ، المجردة منها والمحسوسة ، عائد الى عبقرية الكاتب وفن الشاعر . فعلى قدر مساندة الكلمات بعضها لبعض ، وعلى نوع التأليف بينها ، يتوقف الاحسان في نفض الثروة الفكرية على وجه البيان . ولقد ينبغي ان يكون ثمة تباين في طبيعة الصور او تعاكس في مادة الخواطر ، بحيث يجب ان يطرد الايحاء على موكب نفسي متجانس ، فلا تنبو صورة عن صورة ، ولا يشوه خاطر خاطراً . ورب لفظة وردت في غير مكانها من البيان تبعث الى الذهن اخيلة لا تساوق ما يحيط بها من الاخيلة ، فاذا القارىء متوزع الشعور مضطرب النفس ، لا يتلمس طريق الانسجام ، ولا يعرف معنى الوحدة .

ولقد يتفق للفظة الواحدة ان تقوى على ايحاء الكثير من الصور والخواطر مما قد يضيع معه اثر البيان ، فليحذر الكاتب من مثل هذه الالفاظ او فليحذر الوقوع في الوان تداعيها . والسبيل الى هذا ان يحيط اللفظة بالفاظ تقطع الطريق على ما لا يريد من الصور وما لا يحب من الخواطر . ولعل النعوت والصفات هي اقوى الوسائل الى هذه الغاية . فانظر الى بيت لافونتين : « كان الحطاب المسكين مغموراً بالاغصان » كيف ان النعت لا يوحي من الحطاب الا شكله الطبيعي ، ووجهه المجعد ، وظهره المقوس ، وثوبه البالي . ثم انظر الى بيت هيغو : « يعمل الحطابون الضعفاء في الليل » كيف ان الصفة لا تبعث الى الذهن غير شبح الحطاب واشارته وحركته !

ان مزاوجة الالفاظ فيما بينها عملية دقيقة لا تقوم بها الا بصيرة المنشىء بعد كل كلام ، فليعرف الادباء هذا على الدوام . اما الملاحظات التي بسطناها من قبل في هذا الفصل فحسبها ان توقظ الغافي وتنبه الساهي وتنير السبيل الى البيان .

— ٤ —

الالفاظ اذا انتظمت صارت الى العبارة ، والعبارة تحمل خصائص شتى غير خصائص الالفاظ ، كالدقة والايجاز والوضوح والبساطة ، وسنقول في هذا كلمة او كلمتين حتى يستقيم لنا وجه البيان على الشكل الصحيح . فاما الدقة فظهرها انك تكتب كلاماً ثم تشعر ان ما جال في نفسك قد انبسط وانكشف بكامله في هذا الكلام فاذا اعوزتك الدقة كان ترى شعورك ناقصاً مثلوماً في البيان ، لجأت الى وضع لفظة في جملة او اضافة جملة الى فقرة ثم تبسط المبهم وتنشر المطوي ، وما تزال تزيد وتقدر وتقدم وتؤخر ، حتى يتم لك المعنى ويصير الى النور . وهذا الزحف البطيء نحو البيان لا يتأتى كما رأيت الا بالتماس الالفاظ التي تكشف الشعور رويداً رويداً ، وتبرز الغاية على هون . وما شيء يباعد بينك وبين الدقة كرغبتك في ان تقول كل شيء على دفعة واحدة . فالتضحية ببعض الخواطر ضرورية لاحياء البعض الاخر ، والامر في بيان الفكرة كالامر في تقسيم الموضوع ، كلاهما لا بد ان يقف عند حد لا يجاوزه الى غيره من الحدود . فانت تقول شيئاً ثم تخبىء وراء ما تقول اشياء بحيث يبدو الاصل الضروري على سطح البيان ، وينبعث الفرع المكمل بعد الامعان ، وبحيث يعمل القارىء جهداً او بعض الجهد في استكشاف الخواطر واستجلاء الغوامض . واسمى البيان ما اشترك في تقديره وتقويمه الكاتب والقارىء ، اولهما يقول ما يقول بين الوضوح والغموض وثانيهما يقرأ بعقله ويتملى بنفسه .

على ان الاقتصاد في الالفاظ لا ينبغي ان يكون على حساب المعاني ، فما تستهلك الخواطر من اجل الكلمات ، وانما تضع اكبر ما يمكن من جوانب الفكرة في اوجز ما يكون من العبارة . على ان لا تغلو في هذا الايجاز كل المغالاة ، اذن لاختنق بيانك بالمعاني قد رصت بعضها الى بعض بحيث لا يمكن التمييز بينها بسهولة ، فما يتسرب اليها الهواء ، ولا يشرق بينها الضياء . وما يقاس الايجاز بعدد الكلمات ولا بطول الجمل ، وانما يقاس بالنسبة المعتدلة بين الخواطر والالفاظ ، فلا يكون في هذه زيادة ولا يكون في تلك تجمع او ابتسار .

اما الوضوح في البيان فآت من اشراق الفكرة في ذهن الكاتب من حيث يعرف خصائصها وسعتها وصلتها بغيرها ، وآت من شدة الشعور وقوة الايمان بالفكرة ، وآت من احكام

التعبير عن المراد بالدقة المرجوة . ولعل اظهر ما ينقص الشباب المبتدئين في الانشاء ، على الرغم من توقد اذهانهم وشبوب عواطفهم، انما هو الحرص على الدقة والايجاز ، فلقد يكتبون في شيء من السهولة وكثير من السرعة ، ولكنهم يطفئون نور بيانهم بهذا الكلام الطويل المعتل الرخو الى حد بعيد ، فالجملة غير موصولة ولا مقطوعة ، والتعبير جاف مطلق ، وهم يقولون كل ما يعرفون ، ولا يعيشون فيما يقولون ، ثم لا يستكملون ادوات ما يجهلون : ضرب من البيان ليس من فوقه ولا من تحته شيء ذو خطر ، او قل سلاسل من الكلام منشورة على ارض مبسوطة لا يغمرها ضياء ولا هواء !

ولقد يحلو لبعض نقاد الادب ان يقولوا : اسلوب بسيط واسلوب اعتيادي ، واسلوب وسط واسلوب عالي .. جهل بالاسلوب لعمري مطبق غريب ، وفروق لا اصل لها في البيان ، وان وقعت بين الاشياء فانما الافكار هي التي تسف او تعلو او تروع ، وهي التي تصنع الاسلوب على مثالها من الاسفاف او العلو او الروعة . اما الالفاظ فقدرها في بساطتها ، وبساطتها من جنسها ، ولا شيء غير هذا . ان مهمة الالفاظ ان تعرب عن المعاني على نحو دقيق او قل على نحو بسيط . فما نعرف بياناً استطاع ان يتعامى عن البساطة لانها التكافؤ بين اللفظ والمعنى ، او المطابقة بين الشكل والفكرة . وما تتعارض البساطة في الاسلوب مع الروعة ولا مع الدقة ، وذلك لقدرتها على كشف اسمى انواع الفكر ، وادق الوان البيان .

حمص   محمد روحي فيصل



١ — ابتداء من الجزء الرابع رفع ثمن الجزء الى ٥٠ غ ٠ ل ٠ عوضاً عن ٤٠ .

٢ — يبقى بدل الاشتراك على حاله . ولا يقبل الا عن سنة كاملة بدؤها شهر كانون الثاني .

غير ان الادارة لا تتعهد بارسال الجزء الاول عن السنة الحالية لنفاد نسخه .

٣ — يدفع بدل الاشتراك مقدماً ، ولا ينظر الى اي طلب غير مصحوب بالبدل .

٤ — كل المقالات والابحاث التي ترسل الى « الاديب » لا ترد الى اصحابها سواء انشرت ام لم تنشر .

٥ — تكون جميع المراسلات الى العنوان التالي : مجلة « الاديب » صندق البريد رقم ٨٧٨ بيروت — لبنان .

في غيابة الام

بقلم زكي المحاسني
استاذ العربية في تجهيز دمشق

●

كنت ابحث في سفط هجعت في اطباق اوراقه صور عتيقة، انفض عن بعضها غباراً وارجع بها اعمارا. كان كل شيء في هذا السفط يغط في هجود عميق. ثم هاجته يدي من مكامنه فتناثرت منه سنون آفلة، وهبت ذكريات ماضية. لقد كانت هناته التي فيه كسرب من الطير تعبث اجنحتها من طول التدويم في سفرات بعيدة، فحطت في واد من الارض ثم اثارها صائد.

لقد اخذت يدي صورة بين تلك الاوراق الهامدة لم اكد اراها حتى سرت في القلب نوازع حسرى لاني قرأت عليها هذين البيتين من شعري:

ايا صورة منسية وهي في نفسي — اشاهدها ما دمت اصبح او امسي
اقبلها والروح تهتف باسمها — كما قبل الظمآن فارغة الكأس

فرفعتها الى فمي فقبلتها وانا اساقط على صاحبتها الرحمات مع تساقط الدمعات. فلقد كانت صورة لأمي، تلك المسكينة التي زهدت في كل تراث خلفته فغادرته ووهبته واستأثرت بمصحفها الشريف اقرأ فيه عن روحها، كلما عنت على بالي، ما تيسر من القرآن.

كنت لها املا تلتمع تباشيره في سرائر الحدثان، وكانت كلما ازددت سناً في صباي نبراساً استنير به في ظلمات الدنيا، وحين ودعت اسفار الدروس لازحم بالمنكب حشيد الناس فاكسب الحياة التفت نحو امي فناديتها:

— سارة، يا سارة...

فردت علي باءاءة وانية وغيب صوتها الاعياء، وكانت تجود تلك العشية بالنفس الاخير. ماتت دون ان تأكل من كسبي رغيفاً او تلبس مما جنيت ثوباً. فرحت عليها حران الجوانح من لوعة الوجد مكبوداً مفؤوداً، اوثرها بالبقاء لو كنت لها الفداء. انا هذا اليتيم الذي ما اكتحلت عينه ببرود من طلعة والد، فلقد قبض ابي وكنت ادرج من المهد، ولم يدع لي صورة من بعده. فغاليت لجراثه بكل صورة ابقتها لي امي، وتركت باب قلبي مفتح الرتاج اضم فيه كل من ماتت امه، فاغسل آلامه بدمعة، وما كنت لاجد فيه الا ضريع روحي.

قرأت صفحات من رواية (الام) لماكسيم غوركي ووجدت لهفتي تسيل على شق قلمه فتملأ القرطاس حنيناً بما يجول في فؤادي، فقلت يالله أكان «مكسيم» يوم ولد على ضفاف «الفولكا» قد جرى طالعه في اليتم كانسان ولد بعده بنصف قرن على ضفاف بردى؟ وانكفأت مطرقاً اعجب لسرحة خياله، في حزين مقاله. ولطالما سكب في نفسي التأسي عندما قرأت كتابه الذي خط فيه مباسم طفولته البائسة ورسم في هذه الطفولة صورة لا اجدها غريبة عن صبي كنته يوماً في حياتي. حين عرفت الشعر، اخذ علي انحدار المآقي ابو فراس والمتنبي، فكان شاعر بني حمدان اسيراً في ديار الروم. فانطوت امه الرؤوم على لوعة كجمر الغضا وجزعت عليه فأتت سيف الدولة ابن عمه ومجلسه محتدم بالقوم فسألته فكاك الاسير فلم يخف لخلاصه. فعادت كئيبة خسيرة الطرف كسيرة القلب. وانما لتستروح النسمات من نحو القسطنطينية اذ اتاها كتابه الذي يقول لها فيه:

يا امنا لا تجزعي — وثقي بفضل الله فيه
يا امنا لا تيأسي — لله الطاف خفيه
اوصيك بالصبر الجميل — فانه نعم الوصيه

غير ان امه العجوز التي لم تملك صبراً عليه، ماتت وابنها مثقل بالاصفاد جاثر على القد. فزاد موعها في مصابه، وكان يراها نجحاً له في البر، وامناً له في البحر، فارسل الى روحها من وراء الحديد بهذا الشعر:

ايا ام الاسير بمن انادي — وقطعت الذوائب والشعور
اذا ابنك سار في بر وبحر — فمن يدعو له او يستجير
ايا اماه كم هول طويل — مضى بك لم يكن فيه نصير

ومنذ رويت شعر المتنبي صرت من اعداء حساده، وكان ابو فراس له ألد حسود فكم نغص عليه العيش في مدينة حلب عند سيدها الامير غير اني لم ابغض ابا فراس لانه احب امه وبكاها وكان عليها مفجوعاً، وبها باراً رحيماً.

لما بدأ الموت يدب في جسم المعلم الاكبر «اناطول فرانس» كان يهتف في آخر فينة من عمره وهو على سرير الموت بهذه الكلمة القديسة «يا اماه» ومن ذا الذي لم يصرخ يا اماه وهو بين فكي المخاطر. ان الولد الصغير وهو يمر في الدرب لينادي بامه اذا عدا عليه عاد. وكذلك الشيخ الكبير ينادي في المأزق يا امي. وبهذه القربى الوشيجة تستطيع المرأة ان تكبح من جماح ابنها الغضبان. فارتضاع الثديين كان مبعث قطرات الدماء الاولى في جسم كل انسان. فباسم ذلك الرضاع دخلت ام جعفر البرمكي على الرشيد، وكان الهول يغطي ما بين عينيه. كان اذ ذاك ينفض يديه من البرامكة وهم مقطوعو الرؤوس مشتتو الجسوم في كل قطر ومصر. فاستشفعت بزوجها يحيى فكاد والله يشفعها لكنه كان قد سبق الامر بالقضاء.

ولولا الام لما عاد المتنبي الى الكوفة. فجدته التي رضي بها قسماً بعد ان فاته طلاب الرزق كانت تدعوه اليها، ويدفعه عن الكوفة امراء العلويين ويتوعدونه بالقتل ان فعل. فكتب اليها انه عرج على بغداد وهو صائر اليها بعد حين. فلما قرأت كتابه حمت لساعتها وماتت فرحة بلقائه. فخلدها على جبين الدهر اماً لا تنضو عنها القرون ريحانة الذكرى وقال فيها مرثيته الكبرى التي فيها هذه الابيات:

احن الى الكأس التي شربت بها — واهوى لمثواها التراب وما ضما
فوا اسفي الا اكب مقبلا — لرأسك والصدر اللذي ملئا حزما
ولو لم تكوني بنت اكرم والد — لكان اباك الضخم كونك لي اما

* * *

سلام عليك ايتها الام، يا حاملة الجنين في احشائك، الاشهر الطوال هوناً على هون، يطبع الله قلبك على الحنان فتحدبين عليه وهو وليد حتى يفع. وتمضين بالروح وراءه حيثما رحل، واين سار، وحين ينام تمرين بكفك الرحيمة على جبينه، وتصعدين من صدرك تنهيدة فيها كل الامل ان يجعله الله احسن الناس. حتى اذا اشتد ساعده ونما في عمره وحالت حاله فعق، لم يدر على لسانك الدعاء عليه فقلت: «يا هداه الله».

انك الكوكب الوهاج في ليالي الابناء. فبوركت ايتها الام، يا سر الديمومة. تعدين الشعوب كما قال حافظ ابراهيم، وتهزين بيدك الدنيا وانت تهزين السرير كما قال نابليون.

دمشق — زكي المحاسني

الروم في القرآن

بقلم رائف فاخوري

في القرآن الكريم سورة هي الثلاثون من سوره عنوانها سورة الروم والمقصود بالروم هنا هم البيزنطيون اي المملكة الرومانية الشرقية او مملكة القسطنطينية المسيحية . قد لا يكون هنالك وجه ظاهر للغرابة في ان يكون في القرآن سورة بهذا الاسم لوجود مثيلات لها فيه تحمل اسماء الاعلام . ولكنك لا تتمالك عن الاستغراب متى علمت انها تمتاز منهن بوعد اشتملت عليه الايات الواردة في صدرها كانها الحلية في جيد الحسناء وهو وعد لغير المسلمين بالنصر قاطع جازم مشفوع بذكر السنين على غير الاسلوب الذي تكون به انباء الوحي والغيب، لان هذه الانباء عادة لا تحدد الوقائع بالسنين . ومع ان في القرآن وعوداً كثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من انباء الغيب واخبار المستقبل ولكنها خلو من ذكر السنين والشهور، فالاية التي تحدد في هذه السورة حصول النصر للروم في سنين معدودة تعتبر بحق فريدة في بابها . ولكي يقف القاريء الكريم على مبلغ ما في هذه الاية من الاهمية العظمى بالنسبة للظروف التي نزلت فيها لا بد له ان يلم بالاسباب التي دعت الى نزولها وهذا يجيب بنا الى القاء نظرة عجلى على تاريخ ذلك العهد .

من المعلوم ان الحرب بين الفرس الوثنيين والروم المسيحيين اهل الكتاب استمرت مشتعلة زمناً طويلا ولم تكن لتخمد حيناً حتى تعود فتستعر من جديد باشد واهول مما كانت . وهكذا بدأت في سنة ٦٠٤ اكبر حرب دموية بين الدولتين دامت اربعاً وعشرين سنة، كانت السنوات الثمانية عشرة الاولى منها اي حتى السنة الثانية عشرة من عهد هرقل سلسلة متصلة من النكبات للروم . اذ انه في سنة ٦١٥ في عهد كسرى ابرويز ملك الفرس دخل القائد شهر براز الفارسي الى فلسطين على رأس جيش عظيم فاكتسح البلاد جميعها بعد معركة عظيمة وقعت في اذرعات وبصرى ادنى الشام الى ارض العرب، ثم دخل القدس التي كانت خالية من المدافعين واسر عدداً كبيراً من جميع الاسنان رجالا ونساء اكثرهم نصارى واخذ معه الصليب الاكبر محفوظاً في غلاف مختوم بختم المطران .

كان الاسلام في هذا العهد قد مضى على اظهاره والدعوة اليه جهراً نحو من سنة وكان المشركون من اهل مكة ماضين في محاربة هذه الدعوة وخنقها في مهدها بكل ما لديهم من قوة وحيلة ويلحقون بالمسلمين كل انواع الاذى والتعذيب ولا ينفكون يتحينون الفرص لتعييرهم وشتمهم والازراء بهم . لذلك كان اهل مكة يتتبعون اخبار تلك الحرب بتلهف وشوق : المسلمون منهم هواهم مع الروم المسيحيين لانهم اهل كتاب مثلهم، والمشركون هواهم مع الفرس لانهم وثنيون مثلهم . فلما بلغتهم اخبار انكسار الروم وانتصار الفرس فرح المشركون وشمتوا بالمسلمين وقالوا لهم : «انتم والنصارى اهل كتاب ونحن وفارس اميون وقد ظهر اخواننا على اخوانكم ولنظهرن نحن عليكم .» وحاولوا ان يلصقوا بدينهم عار انكسارهم فشق الامر على المسلمين وحزت هذه الخيبة في نفوسهم ان اتاحت للمشركين ان يشمتوا بهم وضاقت صدورهم بهذا الفشل الذي غمهم وسر اعداءهم ولم يكن هنالك من امل في استطاعة الروم ان تعيد الكرة وتتغلب على الفرس لان دولة الروم كانت في هذا العهد في حالة من الاختلال والاعتلال لا توحي بغير اليأس والقنوط . حينئذ وفي مثل هذه الاحوال نزلت هذه الايات : (الم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الاخرة هم غافلون) .

كان اشد الناس فرحاً بهذه البشرى واقواهم يقيناً بتحقيقها ابو بكر الصديق (رضه) . فانه ما عتم ان سمعها حتى حملها واخذ يطوف بها في ارجاء مكة وقد انتهى الى حلقة ضمت عدداً من رجالات قريش فوقف عليهم وصاح بهم : لا يقرر الله اعينكم فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين . فنهد اليه من بينهم ابي بن خلف وصرخ في وجهه : كذبت . فغضب ابو بكر وهو المعروف بالهدوء ووداعة النفس وقال له : كذبت انت ياعدو الله . فقال ابي : اجعل بيننا اجلا اناصبك عليه (اي اراهنك) . قال : افعل . ثم تراهنا على عشرة جمال من كل واحد منها وجعلا الاجل ثلاث سنين . فاتى ابو بكر واخبر النبي (ص) بما كان . فقال له : «البضع ما بين الثلاث والتسع فمد اليه فزايده في الخطر وماده في الاجل، اي زد في الرهان واطل المدة .» وكان ذلك قبل تحريم القمار فعاد ابو بكر الى ابي واتفقا من جديد على ان يكون الرهان مائة بعير والمدة لغاية تسع سنوات وهذا يتفق مع ما يستفاد من قوله (في بضع سنين) بدون تحديد سبع او ثمان مثلا لان الحكمة في التعبير عن هذا النبأ بهذا الاسلوب هي افادة ان الغلب يكون في الحرب الممتدة في هذه المدة .

وفي غضون ذلك كان ابي بن خلف صاحب الرهان يقول بمكة للنبي (ص) : يا محمد ان عندي العود (يعني فرسا له) اعلفه كل يوم فرقاً من ذرة، اقتلك عليه . فيقول له الرسول : انا اقتلك ان شاء الله . ثم بعد الهجرة بسنين ثلاث حصلت وقعة احد بين المشركين في مكة وبين المسلمين فلما انكشف المسلمون يومئذ وتفرق عن النبي اصحابه سوى ثلاثين رجلا ثبتوا بين يديه وطفق عليه السلام يقول : الي يا فلان، انا رسول الله . «فما يعرج اليه احد والنبل يأتيه من كل جانب ويقع حواليه» اقبل نحوه ابي بن خلف وهو يقول : اين محمد؟ لا نجوت ان نجا .

فاستقبله رجال من المسلمين فامرهم الرسول ان يخلوا طريقه فاقبل وهو يقول : يا كذاب اين تفر؟ فتناول النبي الحربة من احدهم وانتفض بها انتفاضة شديدة حتى تباعد عنه من كان حوله ورماه بها فاصابت عنقه وخدشته خدشاً غير كبير واحتقن الدم فرجع وهو يقول : قتلني والله محمد . فقالوا له : ذهب والله فؤادك، انا لنأخذ السهام من اضلاعنا فنرمي بها، فما بك والله من بأس . ما اجزعك ! انما هو خدش . ولو كان هذا الذي بك بعين احدنا ما ضره . فقال واللات والعزى لو كان هذا الذي بي باهل الحجاز لماتوا اجمعين . انه قال لي بمكة انا اقتلك، فوالله لو بصق علي لقتلني . ثم مات وهم راجعون به الى مكة ولم يقتل النبي (ص) بيده الشريفة احداً سواه لا قبل ولا بعد . وبينما هذه الاحداث تجري ارسل هرقل ملك الروم سنة ٦٢١ جيشاً كبيراً الى اسيا ثم التحق به في السنة التالية وكانت السنة الثانية عشرة من ملكه، حينئذ بدأ الحظ يبتسم له فكسر القائد شهر براز وشتت جيشه وتوغل بعد ذلك في بلاد فارس وحصلت له مع كسرى معركة عند بلدة قازناق كان النصر فيها للروم، ثم بعد معارك دامية وحوادث جسيمة واعتلاء شيرويه عرش فارس سنة ٦٢٨ عقد الصلح بين الدولتين وكان من شروطه اعادة الصليب الاكبر الذي كان اخذه شهر براز . ووردت على المسلمين اخبار النصر الاول يوم وقعة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة وهو اليوم الذي انتصر فيه المسلمون نصراً باهراً فكان فرحهم واغتباطهم مزدوجاً لحصول النصر فيه للفريقين، المسلمين واهل الكتاب وكان ذلك قبل حلول الاجل بنحو سنتين فأخذ ابو بكر الرهان من ذرية ابي وجاء به الى الرسول (ص) فامره ان يتصدق به .

رائف فاخوري

الوزال

الاب غريغوريوس فرحات
رئيس الكلية البطريركية في بيروت

عذوبة الضياء في فجره ترشفها العينان من زهره .
ما الزعفران والبهار وما القندول يذكو السفح من عطره
ما الاقحوان بعد طيب الكرى والطل لماح على ثغره
يلاعب الشعاع اقماره الغرّ فيهمي النور من غرّه
عندي بابهى في الصباح من الوزال كالصباح في سحره .
تخاله الفراش حامت على عشب الربى ظمأى الى قطره
فراش تبر فوق سوق من الزمرد المياس في كبره
صافية الرونق مجبورة الغرور كالطفل على طهره
ضاحكة تبعد ظل الاسى عن مقلة المرء وعن فكره
وافى به الرفيق مستروحاً شذاه والورود لم تغره
في باقة نضيرة الغصن كم ترفعت يمناه في هصره
مذهبة الاحلام ، نشوى الرؤى كشارب يغفو على سكره
اثقلها العجب والقى ندى الليل عليها من حلى درّه
وخالطتها حمرة الورد ، والورد مليك الزهر ان تدره
فانتصرت صفرتها وانحنت تنفض تبرها على زره
يا حبذا العبير يسري وقد سرى الي الوحي في اثره
شممته فباح عفواً بما يستكتم الرفيق من سره
محاذراً عيني مستخفياً لا تصدر الانفاس عن صدره
يخالس الغفلة مني كمن يخاف ان يؤخذ في وزره
هيهات قد نم عليه الشذى هل يفضح المسك سوى نشره
فاستضحك المأخوذ والباقة الجذلى تؤآتيه على بشره
كانها بين يديه سنى مليكة الفضاء او بدره
وقال والزهر نديّ الجمال الغضّ ملوي على خصره
ملاطفاً له ويحرص ان ينفر البنان عن تبره :
« واهاً له في الكأس من باهر اللألآء معذور على فخره !
اما هو الوحي اتى شاعراً يلهمه ما طاب من شعره؟»
بلى هو الوحي وانى لمن يغلبه الوحي على امره
ان يجعل الوزال زهر الخلود وزائداً ما شاء في عمره !
سبحان من وشاه من اصفر ينتحر الورد على نحره . .

غريغوريوس فرحات

الحركة الفكرية في انكلترا

عرف الشعب الانكليزي بكرهه المذاهب والمدارس في الفن ، فالرومنطيقية الانكليزية تدرجت وترقت بدون مظاهرات ولا معارك ،من تومسن الى غولد سميث الى غراي الى يونغ ، ثم الى جيل بيرن وكيتث وشلي . فقد تطور الاحساس الفني الوطني تطوراً بطيئاً ولم تقع في انكلترا ثورة ادبية كالتي اعلنها اعلام التجديد في فرنسا مثلا . ولا شك في ان الفردية هي التي سادت الادب الانكليزي في الثلث الاول من القرن العشرين على ايدي نوابغ افذاذ كتوماس هردي ورديرد كبلنغ وغلسورثي وجيمس بري وولز وبرنردشو . سوى انه لا يستطاع درس الحركة الادبية الانكليزية المعاصرة درساً وافياً من جراء العدد الكبير من المؤلفات التي تشتمل عليها هذه الحركة ، فضلا عن ان مسألة المؤثرات الخارجية ما تزال صعبة الحل . ومن الطوابع الادبية التي اتسم بها معظم المؤلفات الانكليزية التي صدرت عقب الحرب الكبرى الماضية ميل هذه المؤلفات الى تمثيل الكتل في علاقاتها بالمجموع ، لا الى تمثيل الافراد ، شأن ديكنز والكسندر هردي في تآليفهما . على ان فردية كبار الكتاب الانكليز المعاصرين لم تمنعهم من ان ينظروا الى مواضيعهم من الوجهة الاجتماعية .

ومما لا نزاع فيه ان عهد الحرب الماضية وما تلاه غيب العهد الادبي الانكليزي السابق . فولز بعد ان وضع عدة مؤلفات تتعلق بالحرب ، دخل منذ عشرين سنة في عهد سياسي وفلسفي تبشيري لم يقسط له فيه بنجاح كبير كالذي احرزته قصصه الماضية . ورديرد كبلنغ الذي نكبته الحرب بموت ولده في ساحة الشرف لم ينتج بعد ذلك سوى مجموعة اقاصيص وسوى قصة للفيلق الذي كان ينتسب اليه ولده . حتى جيمس بري نفسه تأثر بالازمنة الجديدة وطبقها على اساليبه القديمة (وقد توفي في عام ١٩٣٧) . فقصته «ماري روز» مثلا تدور حول جندي استرالي يعود الى ايكوسيا مسقط رأسه ، فيجد امه ما تزال شابة بفعل سحر عجائبي . اما برنردشو الذي ما برح خصباً بالرغم من كبر سنه فقد اهتدى الى منابع جديدة من المتناقضات السياسية والاجتماعية في حوادث الحرب ، ثم في تاريخ جان دارك (١٩٢٣) واخيراً في ازمة الديمقراطيات ونشأة الديكتاتوريات .

والغريب ان ظاهرة الثورة الروسية التي شغلت هذين الكاتبين الاشتراكيين لم توح اليها اي مؤلف خطير ، على ان عطفها على النظام الجديد خلق مشاحنة اليمة بينها وبين الكاتب المسرحي هنري ارثر جونس . والمرة الاولى منذ الحرب يقع خصام في المذهبية السياسية بين كتاب من الانكليز .

نادي القلم : ولا يعني هذا ان مسائل ما بعد الحرب ، كتنظيم السلم ومسألة التعويضات والبطالة والاصلاحات الاجتماعية ، تركت ادباء الانكليز مكتوفي الايدي ، بل على نقيض ذلك تماماً . فمن انكلترا صدرت فكرة تأليف جمعية « نادي القلم » التي ترمي الى ضم ادباء العالم وكتابه في جهد مشترك لاجل السلم . ولا نزاع في ان هذا النادي بذل جهداً منتجاً في الدفاع عن حق الكتاب والمؤلفين في التفكير والكتابة بحرية . على ان ما كان يستغرب من اتحاد الادباء هـذا هو الحملات الادبية التي كانت تقوم الى جانب المنازعات السياسية ، كحملة الشباب على كبلنغ وبري وجروم جروم ، وقد قيل ان للحسد يداً في هذه الحملات الطائشة . سوى ان الامر الذي لم يختلف فيه اثنان هو ان الطابع الجوهري الذي اتسم به جيل ما بعد الحرب ، في هذا النادي وخارجه ، كان الرغبة في التجديد او بالاحرى في « عمل شيء » لم يعمله مشاهير الكتاب في النصف الاول من عهد جورج الخامس وفي عهـدي ادورد وفكتوريا . فقد اعلن ادباء الشباب شيخوخة الاساليب التقليدية التي سلكها الادب والتصوير والحفر والموسيقى ، وطالبوا بالتملص من العراقيل التي تحول دون التكلم بصراحة عن الغرائز البشرية والحياة الجنسية لا سيما في القصة التي تأثروا فيها بمذهب فرويد .

ولهذا الوجه الجديد للقصة الانكليزية التي عرفت منذ نصف القرن التاسع عشر بالفضائل اللاهوتية والعائلية عدة عوامل اخرى ، في جملتها تأثير المذهب الطبيعي الفرنسي الذي تأخر ثلاثين او اربعين سنة ، كما هي العادة في انتقال الحركات الفكرية من شعب الى شعب ، وعودة الكتاب الى الحرية التقليدية في القصة كما كانت في القرن الثامن عشر . على ان اسراف بعض القصاصين الطبيعيين المجردين من الموهبة اغاظ بعض النقاد فخلع على اولئك

الكتاب الفرويديين اسم « مدرسة قن الدجاج » .

المراقبة : سوى ان هذا « الاتجاه التحريري » يجد لجامه في عاملين احدهما مراقبة المسارح والمنشورات ، والآخر حكم لجان القراءة . ومعلوم ان المراقبة الانكليزية تستطيع منع المسرحيات المفرطة في « الحرية . . » كما تستطيع محاكمة المؤلف بطرحها عليه السؤال التالي : « الديك حجة على ان كتابك لا يستحق الاتلاف ؟ » وقد جرت مناقشات عنيفة حول هذه الطريقة في طرح المسألة ، لانها تنافي المبدأ الاساسي للعدالة الانكليزية وهو : « ان كل فرد بريء ما دام لم يثبت جرمه » او « الاصل براءة الذمة » . وبما ان المراقبة الغيت في فرنسا منذ فلوبير فقد صدرت فيها عدة مؤلفات ممنوعة في انكلترا كمؤلفات جيمس جويس مثلا .

وبين الكتب الرائجة والكتب الممنوعة وجد بعد الحرب جيل من الكتاب اتصف بالتشاؤم كلورنس والدوس هوكسلي ومشيل ارلن في التحليل الفرويدي الذي مضوا به حتى الى درس الجنون والجريمة ، ونويل كوورد الذي يعود جانب من نجاحه في المسرح الى تكلف التشاؤم الرائج ، هذا التكلف الذي عقبه في نفسه اعجاب بماضي انكلترا الحديث . على ان الازمة الاقتصادية والنقدية التي اوجعت الكبرياء البريطانية ايقظت نخوة الامة فهبط التشاؤم الى الحد الادنى .

العودة الى التقاليد الوطنية

وفي الوقت نفسه كان الادب الاميركاني يواصل على ايدي ابتن سنكلر وتيودور دريزر وسنكلار لويس وجون دوس باسوس ذلك الاتجاه الاصلاحي اذا لم نقل الثوري الذي كان يعمل منذ الحرب وقبلها على تهيئة ذهنية الشعب الاميركاني لاشتراكية فرانكلن روزفلت الجديدة . ومنذ العام ١٩٣٠ عمل هذا التأثير عمله في انكلترا ، في قصص بريستلي التي تنتسب الى الاسلوب القوي الحي لقصص فيلدنغ ، وفي المسرح الذي عادت اليه تلك الروح الشاردة من انكلترا الحرة في القرن الثامن عشر . وراحت المطابع تعيد اصدار قصص فيلدنغ وسموليت كأن الامة كانت تبحث عن تقاليدها الصحيحة في ما قبل عهد الملكة فيكتوريا . وصفوة القول ان القصة المكتوب لها النجاح عند القراء الانكليز هي القصة الاجتماعية التي تعيد الى الذاكرة الجانب الاكثر رصانة من ادب ديكنز وثاكري وكنسلي وجورج اليوت .

آداب الولايات المتحدة والدومنيون

ولا يستهان بالعدد الكبير من الادباء الذين انجبتهم بلدان الدومنيون في الامبراطورية البريطانية . فقد اعطت زيلندا الجديدة الادب الانكليزي الحديث كاترين مانسفيلد التي لو عاشت لصعدت الى قمة الادب . واعطت اوستراليا هنري هيدن ريشاردسن ، وكندا مازوده لاروش ، وافريقيا الجنوبية دنيس ديتز الذي كتب فصولا مخصصة عن حرب البوير والحرب الكبرى .

وفي انكلترا ايضاً ادب اقليمي ذو قيمة كبيرة . ومن الادباء الاقليميين هوغ ويلبول من منطقة البحيرات وجون بوشان او لورد تويد سموير من ايكوسيا ، ودوغلاس (وهي آن بوشان ، شقيقة جون بوشان) التي صورت حياة الطبقة الوضيعة في ايكوسيا ، مسقط رأسها ، كما صورت ماري وب حياة القرويين في غربي انكلترا .

ادب الشرق : وعلى هامش انكلترا والامبراطورية البريطانية قام باللغة الانكليزية منذ الحرب الكبرى ادب باسم ادب الشرق . فالشرق الادنى الهم بعض ادبائهم في الوقت نفسه منقبون وطبيعيون وفنانون ورحالة . وفي طليعة هؤلاء الادباء لورنس صاحب كتاب « دعائم الحكمة السبع » وهو من اهم المؤلفات الادبية الانكليزية في القرن العشرين ، ويعتبر بمثابة وصية فلسفية واستاطيقية للعالم الشاب الذي بدأ منذ العام ١٩١٢ باجراء حفريات للمتحف البريطاني « بريتيش موزيوم » في بلاد الكلدانيين وفي جنوبي فلسطين .

ومعلوم ان لورنس ، بطل البلاد العربية في الحرب الكبرى صار فيما بعد جندياً طياراً بسيطاً ومات في حادث دراجة باسم شو ، بعد ان شجعه الكاتب برنرد شو على مواصلة كتابه الخطير الذي توازي ضخامته ضخامة التوراة او شكسبير ، ويستطاع التشبيه بين حياته وحياة لورد بيرن لو لم تكن الاولى اكثر نشاطاً واجد من حياة تشايلد هارولد .

ومجمل القول ان انكلترا المعاصرة تعود من الوجهة الادبية الى تقاليدها القوية بدافع من حيويتها الروحية وبدافع من آداب الولايات المتحدة وربما الدومنيون ايضاً ، وتزداد تمسكاً بالمسائل الاجتماعية .

لوسيان غيتري في مسرحية كين

في العام ١٨٣٦ عندما اراد « مسرح الفاريتيه » ادخال المآسي في برنامجه اتفق مديره وفرقة من الممثلين على رأسهم فردريك لوميتر الذي كان قد ادرك فوزاً كبيراً في مسرحية « روبر ماكير » . وكان الممثل الانكليزي الشهير ادموند كين قد توفي لثلاث سنوات خلت تاركاً دوياً كبيراً، فعهد الى اسكندر دياس بكتابة مأساة تشخيصية عن هذا الممثل تكون فاتحة عهد المآسي في مسرح الفاريتيه ، واذ احرزت هذه المأساة نجاحاً كبيراً نقلت الى جميع اللغات الاوروبية واقبلت عليها جميع الفرق التمثيلية المشهورة وماعتم الامر ان تبنتها فرقة لوسيان غيتري .

ويعرف رجال الادب والمتأدبون وهواة المسرح ان كين كان ممثلاً متحمساً شديد الحمية يميل الى السكر ولا يخضع لنظام . وقد اظهره اسكندر دياس في مسرحيته عاشقاً لثلاث نساء في وقت واحد، احداهن هي الممثلة كيتي وقد بدأ حبه لها ينطفئ ، والاخرى هي الانسة انا دامبي وقد بدأ حبه لها يلد ، والثالثة هي الكونتس كوفيلد زوجة سفير الدانمارك في لندن وكان حبه لها في ابان اشتعاله .

يرينا الفصل الاول الكونتس كوفيلد تحضر جميع ليالي الممثل الكبير، تارة برفقة زوجها الكونت وطوراً برفقة البرنس ده غال . وقد لاحظت النساء تصفيقها المتحمس لـ « كين » ونبهتها صديقاتها الى ان الناس بدأوا يتحدثون .. فلم تأبه بل هزأت ولم يقلقها الا قول صديقاتها لها ان الانسة انا دامبي ، وهي فتاة شابة وغنية ، اجتمعت بالممثل في مقصورته وان الاجتماع طال كثيراً . ولم يهدأ روع الكونتس الا عندما اكد لها كين انه لم يجتمع بالانسة انا دامبي ، ولكن هذه الاخيرة بعثت اليه برسالة تتطلب فيها مقابلة صغيرة تتعلق بنصائح « فنية » .

ويرينا الفصل الثاني كين يصرف مع رفاقه الممثلين ليلة سكر وعربدة . وفيما هم كذلك يدخل الحاجب على الممثل العظيم ويبلغه مجيء الانسة انا دامبي . فيأمر الممثل بمحو كل اثر للدعر وبادخال الزائرة التي تركت بيتها العائلي هرباً من لورد مويل الذي يراد تزويجها منه بالرغم منها . وقد جاءت تطلب الانخراط في المسرح وتأخذ رأي الممثل الكبير في الامر . واليكم فقرة من هذا المشهد الذي برع فيه لوسيان غيتري :

كين : لقد شرفتني بالكتابة الي يا حضرة الانسة .. فهل باستطاعتي ان اخدمك في امر ؟

انا : عفواً يا سيدي .. فاذا رأيتني مضطربة فشهرتك وموهبتك ونبوغك ..

كين : (معتذراً) سيدتي ..

انا : لقد قيل لي انك طيب القلب مقدار ما انت عظيم .. ولو انك لست سوى رجل عظيم لما جئت اليك ..


الممثل الانكليزي العظيم ادموند كين

كين : (يشير الى انا بالجلوس فتبقى واقفة) قلت لي انك جئت تطلبين خدمة واني لشديد الرغبة في تأدية هذه الخدمة اليك ، ولكني لا استعجلك ..

انا : شكراً يا سيدي .. فعلى هذه الخدمة تتوقف سعادتي ومستقبلي وربما حياتي ايضاً .

كين : سعادتك ؟ ولكنك تحملين على جبينك جميع خطوط السعادة . مستقبلك ؟ فاية عرافة كاذبة تتنبأ لك بغير اليمن والفلاح ؟ حياتك ؟ فحيثما تكونين تنبت الازهار والرياحين .

انا : قد تكون السنوات الباقية من عمري اسعد من التي تصرمت منه . فلربع ساعة خلا كنت اسائل نفسي أأجيء اليك .. ام اموت ؟

كين : انك تخيفينني يا سيدتي .

انا : لربع ساعة خلا كنت ما ازال خطيبة رجل امقته واحتقره ويراد ارغامي على الزواج منه .

كين : وهل سبق لك ان فكرت في حياة المسرح ؟

انا : نعم . من زمن طويل ..

كين : اتسمحين لي بان اخاطبك كما يخاطب الاخ اخته ؟

انا : نعم .. ارجوك !

كين : (يجلسها برفق ومودة) تفضلي ولا تخافي شيئاً . فمن

هذه الساعة صرت كأنك اختي .

انا : يا لك من رجل طيب القلب .

كين : لقد رأيت الجانب الذهبي من حياتنا فبهرك ، فعلي ان اريك الجانب الآخر من هذه الرصيعة اللماعة التي تحمل اكليلين احدهما من الازهار والآخر من الشوك .

انا : تكلم يا سيدي .

كين : انت جميلة ، والجمال من شروط الحرفة التي ترغبين فيها ولكنه غير كاف . فهناك الفن يا سيدتي .

انا : اذا اخذت بيدي اصل . .

كين : بعد خمس سنوات او ست . . لا تعتقدي ان شيئاً يتم بدون الوقت والدرس . وهناك من يلد مع العبقرية ولكن كما يلد الرخام مع التمثال ، فلا بد من يد براكستيل او ميكل انجلو ليخرج من الرخام تمثال « عشتروت » او « موسى » وافترض بل اعتقد انك من اولئك الذين وهبتهم الطبيعة هذه النعمة . فبعد اربع سنوات او خمس تبلغين ذروة المجد الذي لا تطلبين سواه . . هذا الى ان ثروتك الطائلة . .

انا : لقد تركت كل شيء منذ تركت البيت .

كين : اذن لا تملكين شيئاً ؟

انا : ابداً .

كين : قلت لك انك جميلة ولكنك تجهلين محرري الصحف في انكلترا ، فمنهم من ادركوا واجبهم على الوجه الشريف ، فهم يشايعون كل ما هو نبيل ويدفعون عن كل ما هو جميل ، ويعجبون بكل ما هو عظيم ، وهؤلاء هم مجد الصحافة . ولكن هناك من يتعمدون الانتقاد لعجزهم عن الابداع ، فيحقرون كل ما هو نبيل ، ويلطخون كل ما هو جميل ، ويخفضون كل ما هو عظيم . وقد يستحسنك احد هؤلاء الرجال فيهاجم نبوغك ثم شرفك . . وقد تستغربين في براءتك وطهارتك الدافع الذي دفعه الى ذلك فتذهبين اليه كما جئت الي وتسألينه ماذا يطلب منك ليكف شره عنك . فيقول لك انك اسأت فهم قصده وانه معجب بنبوغك وهو لا يبغضك بل يحبك . . (انا تنهض مرتعبة) فتنهضين كما نهضت الان ، فيقول لك « عودي الى كرسيك يا حضرة الانسة والا . . »

انا : يا للفظاعة !

كين : ولنفرض انك نجوت من هذه التجربة فقد لا تنجين من خصومك ، من منافساتك . فليس في المسرح اصدقاء ، ولا انداد ، بل فيه منافسون . وتفعل بك منافساتك ما فعل بي « سيمر » وسواه ممن لا اريد ان اسميهم . . وسيلجأن للحط من قدرك الى وسائل تحتقرينها ، وهن قادرات على شراء الشتيمة لك باثمان لا تدفعينها انت ! . . اما الجمهور الذي يجهل كيف تحاك هذه الدسائس فيعتقد انها حقائق . ولا تلبثين ان تؤمني بان الخساسة والجهل والعقم هي كل شيء مع الدسائس ، وان الدرس والموهبة والعبقرية لا تفيد شيئاً اذا لم تقترن بالدس !



الممثل الفرنسي العظيم لوسيان غيتري

انا : لا شك انك تألمت كثيراً يا كين .

كين : اجل شقيت كثيراً ، ولكن اقل بكثير مما تشقى امرأة . فانا رجل واستطيع ان ادافع عن نفسي . يرفس النقاد نبوغي باقدامهم ويمزقونه باظافرهم ويعضونه باضراسهم ، ولكن عندما يحاول هؤلاء النقاد التسلل الى حياتي الخاصة يتبدل المشهد .

انا : ولكن هذه الالام كلها لا تشرى بهذه العبارة التي تستطيع ان تقولها : « انا ملك ! »

كين : اجل ، ملك ، ثلاث مرات في الاسبوع . ملك ذو صولجان من خشب مطلي بماء الذهب ، وجواهر من زجاج وتاج من ورق . ومملكتي خمس وثلاثون قدماً . . آه ! صدقيني يا سيدتي . . لا تسلكي هذه الطريق .

انا : نصائحك اوامر يا سيد كين . ولكن ماذا ينبغي لي ان افعل ؟

كين : الى اين ذهبت عندما تركت امس بيتك ؟

انا : الى عمة طيبة القلب تحبني كابنتها .

كين : اذن عودي الى هذه العمة واطلبي منها ان تحميك .

انا : اتستطيع ؟ فلورد مويل قوي وذو نفوذ عريض . فاذا عرف مكاني . .

كين : القانون للجميع يا سيدتي ، هو للضعيف كما هو للقوي .

تعالي معي امضِ بك الى عمتك .

يدخل سليمان خادم كين معلناً قدوم البرنس ده غال .

كين — قل للامير اني لا استطيع استقباله لاني مسحوق تعباً . . قل له اني نائم .

سليمان — واضيف الى ذلك انك صرفت الليل في الدرس، يا استاذ .

كين — لا .. بل اضف الى ذلك اني صرفت الليل في الشرب فيصدقك .

ويرينا الفصل الثالث الانسة انا دامبي تدخل على الممثل كين في خمارة للبحارين، فيدهش الممثل لوجودها ليلا في مثل هذا المكان، فتريه رسالة مزيفة موقعة بامضاء كين يطلب فيها الممثل من الانسة المخدوعة ان تجيئه في الحال لينقذها من خطر يهدد حياتها . وقد تبين ان الحيلة كانت رامية الى دهورة الفتاة . وينتهي الحديث بين كين وانا الى اعتراف هذه الاخيرة بحبها الممثل الذي يحب بدوره الكونتس كوفيلد ولا يستطيع الا ان يحمي انا من لورد مويل الذي كتب الرسالة . وفي تلك الاونة يدخل مويل مقنعاً، فيعمد كين الى انتزاع قناع اللورد عن وجهه ويطرده من الخمارة .

ونرى في الفصل الرابع كين يتأهب في مقصورته ولتمثيل دور روميو مساعدة لاحد المحتاجين من الفرقة . وفجأة تزاح لوحة عليها صورة شكسبير وتظهر من ورائها الكونتس كوفيلد، فيتوسل اليها كين ان تبعد عنها البرنس ده غال، لانه كلما شاهد هذا الاخير جالساً بالقرب منها في اللوج يشعر باضطراب الغيرة يشل عبقريته .. وفي تلك الاونة يجيء البرنس ده غال والكونت كوفيلد ويقرعان الباب طالبين الدخول على كين، فتختفي الكونتس وراء صورة شكسبير التي تحجب باباً سرياً، تاركة مروحتها في مقصورة الممثل . واذ يدخل الاثنان تقع عينا الزوج على مروحة زوجته فيتناولها من غير ان ينتبه كين .

ويتبدل المنظر عن زاوية اخرى من مقصورة كين : الممثل مضطرب يتردد في الخروج الى الملعب لان وصيفة الكونتس جاءت تبحث عن مروحة سيدتها، فاكد لها معاون الممثل انه شاهدها في يد الكونت .. وتمر الدقائق وتتبعها الدقائق، فيتمرمر الجمهور ويضج في القاعة . فيصرخ كين : « ارجعوا الدراهم ! لا اريد ان امثل ! .. » وينطلق في تحطيم ما يراه امامه شاتماً حرفته، لاعناً المسرح ! واذ يجيء من يقول له ان رفضه التمثيل يهدم آمال المحتاج يذعن لعاطفته ويخرج الى الملعب . واذ ينتهي من تمثيل مشهد « الشرفة » (في روميو وجوليت) تقع عيناه على لوج البرنس ده غال فيرى هذا الاخير كأنه يغازل الكونتس كوفيلد، فيتشبث في مكانه ويلبث محدقاً الى البرنس، ثم يخاطبه قائلا : لست روميو انا ! وينطلق في شتمه ..

عندئذ يسمع صوتاً يقول : ليسقط الممثل ! فيتحول كين الى مصدر الصوت فيرى لورد مويل الذي يريد اغتصاب الانسة انا دامبي، فيثور فيه الغضب فيصرخ : هاتوا عصا ! الي بعصا اؤدب بها هذا الدعر الجبان ! .. ويسقط مغمى عليه . فيعلن سليمان : « ان شمس انكلترا قد انخسفت ، فكين العظيم اصيب بنوبة جنون! » وعندئذ يسمع صوت موجع صادراً من مقصورة الكونتس كوفيلد ويهبط الستار .

ونرى في الفصل الخامس والاخير ان كين لم يفقد عقله، ولكن غضب الغيرة جعله يتظاهر بالجنون، وفيما هو ينتظر الكونتس تدخل عليه الانسة انا دامبي وقد جاءت تودعه قبل ذهابها الى الولايات المتحدة لتباشر دروسها المسرحية . ويقرع الباب من جديد فيطلب كين من الانسة انا ان تختبئ في غرفة مجاورة . وتدخل الكونتس كوفيلد وقد ساءها حادث الليل وتطلب من كين ان يعيد اليها صورة كانت قد اعطته اياها . وفيما هو يعيد اليها الصورة شعر بان حب هذه المرأة يهبط في قلبه، وفي هذه الاونة يقرع الزوج بدوره الباب، فيخبئ الممثل الكونتس في غرفة اخرى، واذ يدخل الكونت حاملا المروحة بيده يدعو الممثل الى البراز فيرفض منكراً الجريمة . فيقول الكونت :

— سأقول لجميع الناس انك جبان ! .

فيجيبه كين : لن يصدقك احد .

— سأقول لهم اني رفعت يدي لاضربك ..

فيجيبه كين وقد قبض على ذراعه وانزلها بقوة : وستضيف الى ذلك اني اوقفت يدك !

وعندئذ يرد الى كين من البرنس ده غال كتاب يقول له فيه انه نسي في مقصورته مروحة كان قد اعارها للكونتس، ويطلب ارجاعها اليه . فيندم الكونت على ما بدر منه ويعتذر الى الممثل . وسرعان ما يتضح ان البرنس ده غال هو الذي انقذه من الورطة بالاتفاق مع الكونتس . ثم يصدر الملك امراً بنفي كين مدة سنة، فيقرر الممثل السفر الى الولايات المتحدة مع الانسة انا التي تحبه .

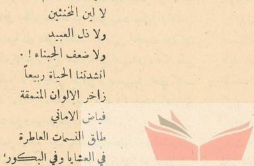
هذه هي المأساة التي ابدع فيها لوسيان غيتري والد ساشا . وهي ترينا جانباً خطيراً من حياة الممثل الانكليزي العظيم الذي توفي في العام ١٨٢٣ .

انغام والحان



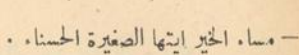
انت ان عزفت ترقص نفسي،
وانت ان غنيت تشجيني
وتسبح روحي في تهاليلك
ويخشع قلبي لانشادك .
ثم اغمض عيني في انغامك
فترى نفسي آفاقاً جديدة
تتلقن فيها معنى الجمال .
وافتح فؤادي لسماعك
فينمى حاضره ويتيه في مجاهل اللانهاية
طفلا يجمع الازهار . .
العاصفة والهدوء
والفرح والحزن
والامل واليأس
والخيانة والامانة
طوع انامك
بل طوع اطراف انامك . .
نقلات في ايقاع
وهمسات في اطلاق . .
انما تفتحان عيني الاعمى
فيبصر دنيا الاماني والحياة .
رأيت في الحانك — المجدلية
على قدمي يسوع،
وسمعت ابن مريم
يتمتم لها بالرحمة،
ورأيت العاشق
الذي يشكو هواه
وفي نفسه اباء
وفي روحه شمم . .
لا لين المخنثين
ولا ذل العبيد
ولا ضعف الجبناء ! .
انشدتنا الحياة ربيعاً
زاخر الالوان المنمقة
فياض الاماني
طلق النسمات العاطرة
في العشايا وفي البكور،
فتندى الزهر باكسير الحياة .
وانشدتنا الشعر، فجر النفوس
فاد الكون، رجع الصلاة لغنائك .
وتعالت الاصداء في الافق البعيد
فرأينا النجم يتلاقى بالنجم،
فترقص الاضواء لك طرباً،
وتسترق الملائكة صدى الحانك
فتصفق الجناح بالجناح
وتشق الفضاء تحمل رسالتك
في مجامرها الحمراء
فتتصاعد مع اعراف البخور
الى « ابولون »
فيفتح لها في الخلود
صفحة من ذلك الكتاب !

البير اديب



عند العين

بقلم حبيب نمر



— مساء الخير ايتها الصغيرة الحسناء .

— ومساء الخير ايها الراعي الشاب .

— ما جئت تفعلين هنا وحدك ايتها الصغيرة الحسناء ؟

— جئت املأ جرتي ماء زلالا من هذه العين الصافية لاسق ابي وامي واخواتي . وانت ما جئت تفعل هنا ايها الراعي الشاب ؟

— جئت لاسقي خرافي و ل . . .

— ان خرافك جميلة ايها الراعي الشاب . . انظر الى هــذه النعجة الكبيرة البيضاء التي تحاول ان ترضع جديها الصغير فيمنعها الكيس الذي حوى ثديها . . انظر الى هذا الكبش الهائل الذي يحاول ان يسبق القطيع . . انظر الى هــذا الجدي الصغير الابيض فهو اجمل جدي اراه في القطيع . . ليته لي لاتعهده بعنايتي واطعمه العشب النضير واملأ معلفــه بالغذاء الطيب واملأ وعاءه كل يوم من مــاء هذه العين الصافية .

— قــد وهبته لك ايتها الصغيرة الحسناء .

— لقد تسخر مني ايهــا الراعي الشاب .

— لــماذا تنظرين اليّ هـكذا ؟ من طرف عينــك . . الا تعجبك الهدية ؟ الا يعجبك المهدى ؟ . هــل خفت ان يزعجك الجدي الصغير بثغائه وحاجاته الكثيرة ؟

— اصحيح انك تهديني هذا الجدي المحبوب ؟

— اولا تصدقيني ايتها الصغيرة الحسناء ؟ وهل ظننت يوماً ان الفلاحين والرعــاة الجبليين يكذبون بوعودهم ، ويسخرون من الصبيات الحسان امثالك ؟

— ولكن الا يحتاج هذا الصغير الى ام تحنو عليه وتطعمه من لبنها ؟ الا يضنيه الحنين الى والدته فيهزل ؟ . الم تفارق امك يوماً فتعرف سلطان الامومة ايها الراعي الشاب ؟ . وهل باستطاعتي انا رؤيته يبكي فلا ابكي واحزن لحزنه ؟ . بالله ايها الراعي الشاب دعه مع امه يسرح وراءها ويشرب لبنها ويتدلل الى جانبها . وانا آتي كل يوم في مثل هذه الساعة من المساء فاقبله واداعب صوفــه الناعم الجميل . انظر ما اجمله وهو ينظر اليّ ، بعد ان شعر بقبلتي وحرارة يدي ووقعها .

— ايتها الصغيرة الحسناء ، انني قــد وهبتك الام والابن فهما لك . . ما بالك بغت ؟ الم تصدقيني ايضاً ؟ اتريدين مني ان اردد لك دائماً ان الراعي لا يكذب ؟

— اذن دعني ايها الراعي الشاب اقبل يديك . . دعني اشكرك على تفضلك واظهر لك عرفان الجميل لهديتك اللطيفة .

— ابتعدي ايتها الصغيرة الحسناء . ان يدي الخشنتين تخدشان شفتيك الناعمتين وخديك الورديين . من واجبنــا نحن الرجال ان نهب النساء ما يسرهن وما يقرب السعادة الى قلوبهن . . وبعد فلا شكر على الواجب ايتها الصغيرة الحسناء .

— حقاً ايها الراعي الشاب انني اشعر بخشونة يديك تداعبان وجنتي ، واذكر ان ابي اوصاني بألا ادع الرجال يلامسونني لانهم خشنون فلا تطل ملامستك لخدي ايها الراعي الشاب .

— ولكن ترعجك هذه الخشونة ؟ الا تشعرين بغبطة كما اشعر انا عندما الامس بشرتك البضة وتداعب يداي الخشنتان خديك الناعمين ؟

— صحيح . انني اشعر بسرور لم اشعر بمثله عندما كان ابي يداعبني . . واشعر بغبطــة لم اشعر بمثلها عندمــا كانت ايدي امي واخوتي تلامس خدي . بالله ايها الراعي الشاب ، مر يديك على خدي لاكشف سر هذا الشعور الغريب الذي يغمر كياني عندما تلمس بيديك الخشنتين وجنتي .

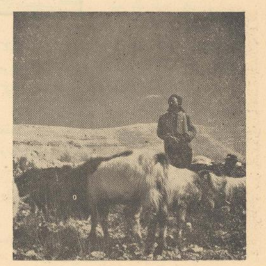
— كما تريدين ايتها الصغيرة الحسناء . وانا بودي معرفة سر هذا الشعور الغريب الذي لم احس بــه عندما كنت اداعب خدي والدتي وخدي شقيقتي .

— هل ادركت شيئاً ايها الراعي الشاب؟ انه شعور غامض . . ولكنه شعور يملأ كياني كله .

— كلا ، انني مثلك . . احس به شعوراً غامضاً يتغلغل في كل جارحة من جوارحي .

— اسمع فجديي يناديني . . تعال ايها الجدي الصغير لاسقيك

قبل ازدحام القطيع على الماء .. املأ لي وعائي ايها الراعي الشاب من ماء هذه العين فانني اشتهي ان اداعب جديي قليلا . سلمت يداك . تعال ايها الجدي الصغير .. تعال اشرب من الماء الصافي .. لا تكابر .. اشرب .. لا تعاند .. الا تشرب الا اذا كانت امك بقربك ؟ تعالي يا نعجتي .. ان ابنك الصغير لا يشرب الا بقربك .. اقتربي ، اشرب ايها الجدي الصغير من الماء الصافي فللمرة الاخيرة تشرب من العين اللجينية في قصعتها الزرقاء .. اما في المستقبل فسأحمل لك الماء على كتفي من العين الصافية .. تمتع بهذا الاجتماع الاخير مع رفاقك .. لن تسرح في المستقبل معهم في البراري وغابة البلوط الواسعة .. سأسجنك في البيت واقيد رأسك بمقود اربطك به الى الجدار كما سأفعل بامك .. وسأقدم لك الطعام بيدي فلطالما كنت تجهد نفسك في الحصول عليه مع القطيع والخراف الكبيرة .. ما لك لا تبتسم ، لا ترقص فرحاً ، لا تضحك ، ولا تطرب ؟ اتميل الى الحرية اكثر مما تميل الى الرفاهية والراحة ؟ لله منك ايتها الحرية ، حتى الجديان الصغيرة تحن اليك وتتألم لفقدك . وانا كم لقيت في سبيلها من متاعب . اود ان اكون حرة ولكن ابوي يريان في حرية الفتاة اثماً .. ما لك تتململ بين يدي ايها الجدي الصغير ؟ اتحب ان تعود الى القطيع لتسرح وتمرح بحرية ؟ كلا ، لن ادعك تفعل ذلك بل سأقودك الى البيت كرهاً .. وسيفرح بك اهلي كثيراً وسيفرحون بامك ايضاً .. اليس كذلك يا نعجتي الجميلة ؟ اليس كذلك يا جديي الصغير ؟ اليس كذلك ايها الراعي الشاب ؟ ما لك تنظر اليّ هكذا ؟ نظرة جميلة وعلى فمك ابتسامة لطيفة .. هل اعجبتك مناجاتي للجدي .. ما هذه القصبة الحمراء التي يتدلى طرفها خلال ثوبك ؟



— هي « المنجيرة » ايتها الصغيرة الحسناء .

— الا تغني بها قليلا ايها الراعي الشاب ، فانني احب صوتها كثيراً .

— سمعاً وطاعة ايتها الصغيرة الحسناء . يكفي ان تطلبي مني امراً فاقضيه ، ويكفي ان تتمنى شيئاً لاهبه لك .. انك تبتسمين يا « عفريتة » . هذه قرصة مني في خدك جزاء ابتسامتك .. الا يعجبك هذا اللحن ؟ لقد كدت ترقصين من الطرب .

— انه لحن بديع . اعطني « المنجيرة » لاتعلمه فعندي المام قليل بها .

— خذي « المنجيرة » ايتها الصغيرة الحسناء وانفخي فيها .. ان الاصوات التي تخرج منها تحت تأثير انفاسك لهي اشهى عندي من اجمل موسيقى وابدع لحن ..

— لا تسخر مني ايها الراعي « الشيطان » والا فلن انفخ فيها ابداً .

— اقول الحقيقة ايتها الصغيرة الحسناء ، ولكنك تحملين كلامي دائما على محمل السخرية .. غني لنرى .

— ما بك تمايل هكذا ؟ لقد اطربك النغم .. ولكن ايها الراعي الشاب اني احس كأن في منجيرتك سحراً غريباً . كلما قربتها من شفتي شعرت بجبور غريب يتغلغل في دمي .. ما لك تبتسم ابتسامة الاعجاب ؟ لقد سخرت مني فسخر منك الفن وجمالك تعجب بالحاني رغماً منك .

— ايتها الصغيرة الحسناء ! .. ان اعجابي ليس بالغناء او تموجات الانغام والفن بل هو بك انت .

— وما يعجبك مني وانا لست جميلة جمال هذه الخراف ، ولست بديعة كهذه الحقول والغابات التي تسرح فيها كل يوم ؟

— يعجبني منك كل شيء .. يعجبني منك هذا الشعر الاسود المتجعد وهذا الجبين الواسع الناصع وهاتان العينان الجميلتان الناعستان وهذان الانف والثغر الصغيران وهذه الذقن الناعمة الدقيقة وهذان الخدان الاسيلان الورديان وهذه القامة الهيفاء .. يعجبني منك هذه الابتسامة الغامضة غموض الغروب .. ما لك تطرقين براسك ؟ هل اخجلك كلامي ايتها الصغيرة الحسناء ؟ هل تخجلك الحقيقة ؟

— كفاك ايها الراعي .. الشاعر كفاك .. خذ « منجيرتك »

وانفخ فيها قليلا .

— ستكون انغامي بالقياس الى انغامك كهدير النهر الهائج بالقياس الى زقزقة العصفور الجميل .. ولكن ما هذه اللذة التي تغمرني؟ لقد وضعت « منجيرتي » في فمي مراراً كثيرة فلم اشعر بمثلها .

— وانا ايضاً كثيراً ما نفخت في « منجيرة » شقيقي فلم اشعر بمثل تلك الغبطة التي شعرت بها منذ هنيهة .. بالله عليك ما سر ذلك؟

— لعل ذلك من تأثير الغروب .

— كلا . فكثير ما نفخت في المنجيرة عند الغروب فلم اشعر بشيء من ذلك .

— وانا ايضاً كم نفخت في منجيرتي وانا عائد بقطيعي عند المساء فلم اشعر بشيء من هذه الغبطة .

— لعل ذلك من تأثير العين .

— كلا .. كثيراً ما جلست على هذه العين انفخ فيها فلم اشعر بشيء من ذلك .

— لعل ذلك من تأثير هديتك لي .. والمهدي يشعر باللذة كما يشعر بها المهدى اليه .

— ان في ذلك شيئاً من الحقيقة .. ولكن ما علاقة الهدية « بالمنجيرة » .

— صدقت ! .. لعل ذلك ناتج عن انتقال « المنجيرة » من فمك الى فمي وبالعكس .

— لله منك .. لقد وجدتها .. فان تلامس ثغرينا بهذه الواسطة كان سبباً في شعورنا بهذه الغبطة .

— اذا كان تلامس ثغرينا بواسطة « المنجيرة » سبباً في مثل هذا الحبور وهذه اللذة ، فكيف تكون النتيجة اذا ما تلامس ثغرانا بغير واسطة؟

— لست ادري .

— فلنجرب .

— وكيف نجرب ؟

— الم تر الام كيف تأخذ طفلها بين يديها وتقبله في ثغره ؟ خذني انت بين يديك وطوق جسدي بساعديك القويتين كما تفعل الام بطفلها .. ثم ضم صدري الى صدرك وضع ثغرك على ثغري وشفتيك الخشنتين على شفتي وقبلني كما تقبل الام طفلها .

— ان حرارة جسدك تنعشني ايتها الصغيرة الحسناء ، وان ماء ثغرك لاطيب عندي من ماء هذه العين الرقراقة .

— ان يديك الخشنتين تداعبان جسدي كما يداعب محراث الزارع الخشن الارض فيحييها .. وان ماء ثغرك لاطيب عندي من ذلك النبيذ القاني الذي صنعه جدي من دوالي كرمنا والذي ذقته قبل مجيئي الى العين . . ايها الراعي الشاب ان شفتيك الخشنتين احب الي من شفتي امي وهي تقبلني .

— انها تجربة موفقة على كل حال .

— ايها الراعي الشاب لو دامت هذه التجربة الى ابد الدهر !

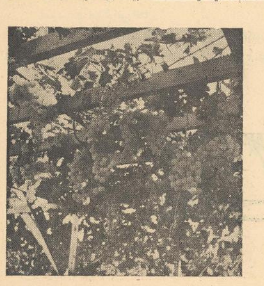
— ايتها الصغيرة الحسناء . . اتقبلين ان تعيشي معي في كوخي الذي صنعته من شجر الغار على تلك الرابية الهادئة المطلة على البحر وعلى الجبال العالية ؟

— وانت اتقبل ان اكون معك دائماً ارافقك الى كل مكان لنعيد هذه التجربة اللذيذة ؟

— اتقبلين ان يصلي الكاهن على رأسينا ويباركنا فلا ننفصل ابداً؟

— وانت اتقبل ان ارعى الخراف معك ونعيش هائمين في الحقول والغابات ثم نعود الى العين نسقي قطيعنا ؟ ومتى فرغنا من ذلك اوينا الى كوخنا الصغير ونمنا جنباً الى جنب وانت آخذ بي بين ذراعيك كما تأخذ الام طفلها الصغير .

— اتقبلين ان تكوني زوجة لي اسقيك اللبن واملأ لك الجرة من العين واحمل لك الاثمار اللذيذة والفواكه الطيبة ؟ وان شئت اخذتك معي الى المراعي الخصبة تداعبين ما تشائين من الجديان الصغيرة . . واذا ما شعرت بقيظ روحتك بغصون الاشجار ، واذا ما شعرت بالبرد القيت عليك معطفي الدافي ، وضممتك الى جسدي كما تضم الام طفلها في الايام الباردة . واذا ما داهمنا المطر التجأنا الى الهيكل القديم وقضينا فيه ساعات هادئة بين زمجرة العواصف وهمهمة الامطار .



— وانت اتريد ان تكون زوجاً لي ؟

— بكل طيبة خاطر . . وانت ؟

— بكل سرور .

— غداً نذهب الى الكاهن .

— طيب . . والان لنعد الى تجربتنا ولنمض بها مدة اطول .

— كما تريدين .

— ابتعد ايها الجدي الصغير فقد اقلقتنا بثغائك . . هل جئت تعكر صفاءنا ؟ سآتيك بعد قليل .

— دعيه . . دعيه ايتها الصغيرة الحسناء . . وابتسمي له ابتسامة لطيفة فاني ارى في وجهك المبتسم صورة الشمس على مرفق الافق الذهبي وهي تحاول بكل تراخ وفتور الاختفاء في مخدعها الناعم .

— ولكن هل غابت الشمس ؟

— نعم ايتها الصغيرة الحسناء .. منذ بضع دقائق .

— لقد شغلت بالجدي والنعجة .. وشغلتني عن نفسي ايها الراعي الشاب فلم افطن لغياب الشمس . ان اهلي في البيت سيقلقون لطول غيابي .

— وانت قد شغلتني عن نفسي ايتها الصغيرة الحسناء فشردت خرافي .. وسيضطرب الناطور غداً حين يرى آثارها في الحقل المجاور .. ولكن ما همنا !

— اذن قبلني قبلة الوداع .. وضمني اليك ضمة قصيرة .

— لن اشرب في هذا المساء من ماء العين الزلال لاني قد ارتويت .

— وانا لن اشرب في هذا المساء اللبن والماء لاني قد ارتويت .

— اسعيد انت ايها الراعي الشاب ؟

— كل السعادة .. لقد كنت اظن نفسي سعيداً عندما اكون في البرية وقطيعي حولي يرعى الاعشاب النضرة الخضراء وانا ممسك بنجيرتي انفخ فيها بصوت عال ، او عندما اكون في الغابة اتفيأ ظل الاشجار والنسيم الرطب يداعب وجهي وشعري وانا اغني بصوت تردد صداه ارجاء الوديان على « دلعونا » او على « ميجانا » او « عتابا » اما الان فقد عرفت ان تلك السعادة لم تكن الا سعادة ناقصة .. والسعادة الحقيقية هي التي عرفتها معك منذ هنيهة .. وانت اسعيدة انت ايتها الصغيرة الحسناء ؟

— كل السعادة .. لقد كنت اظن نفسي سعيدة عندما كنت العب مع صبيان القرية وبناتها او عندما كنت البس ثيابي الجديدة في ايام العيد واذهب الى الكنيسة ، او عندما كنت اذهب مع رفيقاتي الى البرية والحقول نجمع الحشائش الخضراء لبقراتنا وعجولها الصغيرة ، او عندما كنت الجأ الى فراشي بعد نهار متعب قضيته في مساعدة والدتي وانا اضم بين يدي اخي الصغير الاعبه ويداعبني ، او عندما كان اهلي يعطونني بعض الدراهم بمناسبة الاعياد .. اما الان فقد عرفت ان تلك السعادة لم تكن الا سعادة ناقصة .. والسعادة الحقيقية هي عرفتها بين يديك منذ هنيهة . . الان قد ادركت لماذا كان يحذرني ابي من ملامسة الرجال .

— والان عرفت لماذا جدي ينصحني بالابتعاد عن النساء .

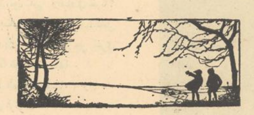
— لقد كاد الحديث يشغلنا من جديد فالى اللقاء ، الى غد ايها الراعي الشاب .

— الى الملتقى . . الى غد ايتها الصغيرة الحسناء .

— اتبعني ايها الجدي الصغير مع امك لاقودكما الى السجن . لا تعاند .

— اقتربي ايتها الخراف واشربي من ماء العين الصافية فقد آن لك ان تعودي الى حظيرتك الصغيرة لترقدي . . وارقد انا فتنعش نفسي الاحلام اللذيذة والاماني الحسان .

دمشق — حبيب نمر



النزعة العالمية للفكر الافرنسي

بقلم نسيم بزبك

تمهيد

في هذا العطف الصحيح الذي تبديه الكثرة الغالبة من الامم والشعوب نحو فرنسة في محنتها الحاضرة دليلا بالغاً من جملة الادلة على ما لها من نفوذ شامل ينبسط انبساط الافاق. ولا غرابة في ذلك فالفكر الافرنسي هو فكر عالمي بنزعاته الرئيسية يستتبع مثل هذا النفوذ ومثل هذا العطف ويبعث على الامل في ان تسترد فرنسة مجدها المفقود وتحفظ تراثها الموجود.

مما لا ريب فيه بصورة عامة ان التيارات الفكرية والاقتصادية التي اتسعت آفاقها في التاريخ الحديث قد وجهت تفكير الشعوب توجيهاً عالمياً ساهم فيه افراد عباقرة من هنا ومن هناك، فتمثلوا الانسانية وطناً اكبر الى جانب الاوطان المتمايزة ان لم نقل فوقها.

واذا حصرنا النظر من الوجهة الافرنسية نجد ان للفكر الافرنسي طابعاً عالمياً ينفرد عن سواه من بعض الوجوه بأوصاف وخصائص في ميادين التفكير الطليق الجامع. ان للكاتب الافرنسي الاشهر بنجامين كونستان كلمة لها معناها الرمزي الدقيق في هذا الصدد فقد قال: نحن في فرنسة لا نحب الا كل ما هو عالمي.

يوجد امة افرنسية نتبين وجهها الصحيح من خلال عقائدها وتربيتها العجيبة، امة يشهد لها التاريخ والعالم انها لا تبني آمالها على ويلات الشعوب الاخرى ولا تقول بمبدأ تأليه الدولة او عبادة الوطن عبادة مطلقة وتنكر قول القائلين: ما من شيء فوق الوطن، لا العدل ولا الحقيقة ولا العقل.

ان تعاليم كهذه مناقضة لتقاليد فرنسة التي نراها من خلال الماضي والحاضر تنزع بتفكيرها نزعة بارزة الى الاحاطة والشمول بحيث تتناول الانسانية باعضائها المتكاملة فترتدي طابعاً عالمياً يتميز ببعض ملامح واوصاف خاصة، منها ان فرنسة هي التي افرغت حقوق الانسان في قوالب واسعة النطاق ونشرتها على الناس. ولا جدال في ان انكلترا هي معهد الحريات الدستورية، اما فرنسة فقد تأثرت تأثراً بالغاً بالمبادىء عينها ونشرتها في القارة الاوروبية وفي سواها بعد ان اعطتها صبغاً افرنسية خاصة تجد فيها ما لا تجده في الدساتير وفي اية شريعة من شرائع الديمقراطية القديمة او الحديثة. فقد جاء في مبادىء حقوق الانسان: ان الناس يخلقون احراراً ويعيشون احراراً وهم متساوون في الحقوق.. وليس لهذا النص مثيل في دساتير الدول الديمقراطية بصبغته الانسانية الجامعة، تنعكس فيه على اكمل وجه نزعة فرنسة العالمية التي هي وليدة العدل الاجتماعي وروح الاخاء والمساواة.

واذكر هنا كلمة مأثورة: ان (كانت) الاشهر لم يتخلف عن منهاج عمله اليومي الا مرة واحدة عندما بلغه خبر الثورة الفرنسية، فادرك ان فكرة عالمية ذات صبغة ممتازة تتمخض بها فرنسة لتتردد اصداؤها في زوايا العالم الاربع.

واذا القينا نظرة فاحصة على اراء كبار المفكرين وعقائدهم نجد ان الفيلسوف الافرنسي ديكارت كان من اسبقهم، ان لم نقل اسبقهم المجاهرة بعد البحث والتعليل بان العقل البشري هو عالمي بجوهره ونزعاته. وكفى بنا دليلا ديكارت وحده لتبرير رأي القائلين ان الفكر الافرنسي منطبع انطباعاً ممتازاً بعامل التقاليد وفعل المزاج على حب الاحاطة والشمول والخروج من الجزئيات الى الكليات، من الميادين الضيقة المحدودة الى الميادين الواسعة الطليقة.

ونجد امراً آخر ان اعاظم مفكري فرنسة متفقون ان اول كلمة للفلسفة الافرنسية كانت نداء حاراً في سبيل التفكير الجامع والمنطق المشترك بين الامم والشعوب. وفي هذا الصدد يقول العالم الافرنسي (دركايم) ان النزعة العالمية هي من اخص خصائص مزاجنا الوطني تظهر جلية واضحة في ابرز اوصافنا وعقائدنا ومنتجاتنا، وانروح ديكارت وقد سبقت الاشارة اليه مستقرة في جذوع الفكر الافرنسي.

ان صفحات التاريخ تنطوي على غير حادثة بهذا المعنى، تتكلم فتستصغي العالم وتستدعي الاحترام والاعجاب.

سائلوا انفسكم عن فيلسوف المعي يخطب من على منبره في عاصمة بلاده الجميلة المضرجة بالدماء وهي تحت حصار العدو فيقول: «ان الدراسات المشتركة التي يواصلها المفكرون بروح واحد في سائر الدول المتمدنة تؤلف فوق الجنسيات المختلفة وطناً اكبر لا تلطخه حرب ولا يهدده عدو، بل هو ملجأ شبيه بمدينة الخالق.»

فالمفكر الذي لم يتردد في ان يقول هذا القول هو غاستون باري الافرنسي الوطني، والعاصمة المحصورة هي باريس. اما المحاصرون فهم الالمان انفسهم في سنة ١٨٧٠.

ومما تقدم ذكره نخلص الى القول ان نزعة فرنسة عالمية باحكام تقاليدها الموروثة وتربيتها العجيبة ومركزها الطبيعي وامزجة

سكانها وطبائعهم يرون على هذا القياس ان الرجل المتمدن لا يفكر تفكيراً حصرياً انه عضو في امة او في عائلة او في مجموعة من المهن او طبقة من الطبقات بل يفكر في مقدمة كل امر انه انسان .

وان لهذه النزعة اثراً ملحوظاً ليس في الفلسفة الافرنسية وحدها والادب والفن بل في السياسة ايضاً بوجهيها الداخلي والخارجي ففرنسة قبلة انظار الناس من مختلف الامم والشعوب يعرفونها بصورة خاصة ، ملاذاً للمضطهدين وملجأ للمسترزقين والمنكوبين .

فلا غرابة مع ذلك ان يتردد مثل هذا القول في العالم : فرنسة هي وطن من ليس له وطن ، وان يقول السر اوستين تشبرلين « احب فرنسة على شكل حسناء .» امامن الوجهة الخارجية فقد تأثرت سياسة فرنسة بتفكيرها العالمي تأثراً لا جدال فيه . فقد ظهرت رسول سلم في العالم وعملت في سبيله باخلاص وايمان ، وليس لها من الحواجز الطبيعية والضمانات ما يدرأ عنها خطر الاجتياح ، وهي قائمة وجهاً لوجه امام اعظم قوة عسكرية في العالم . وعلى الرغم من ذلك لم تضع الدولة الافرنسية مسألة التسلح في مقامها الاول ولم ينقطع رجال سياستها عن ترديد انشودة السلم ترديداً يلقى اصداء مستحبة في مجتمع شديد الايمان بمبادىء الانسانية الجامعة .

والتاريخ يشهد ان فرنسة ابدت من ضروب العدل والتسامح الواناً في الميدان الدولي ، واحترمت امماً وشعوباً في امانيها واعلامها وثرواتها ، وكفى بنا دليلا انها لم تعاكس المانيـة في استجماع اجزائها وتوثيق بنيانها ، ولم تقاوم ايطالية في تأسيس وحدتها بل اعانتها على ذلك اعانة لا ينكرها رجال الفاشيست انفسهم . وكثيراً ما ردد رجال السياسة من دول مختلفة ان فرنسة اخطأت في تصرفاتها هذه تجاه المانية وايطالية .

واستطيع ان اقول في معرض هذا الحديث ان النزعات العالمية الانسانية في الدول الديمقراطية عامة وفي فرنسة خاصة ظهرت شديدة الحاجة الى التعديل والتكييف لا سيما في وسط التيارات القائمة على تأليه الدولة وعبادة الوطن عبادة مطلقة وجعل العقل والصواب والعبقرية وقفاً على امة معينة دون سواها من الامم .

ان كانت عظمة فرنسة العسكرية قد خضعت لعوامل القوة القاهرة هذه الفترة من الزمن ، فلا شك ان عظمتها الفكرية لاتزال قائمة في العالم بآثارها وذكرياتها ومحاسنها ، تبسط عليه اجنحة فكرها الواسع الخصيب . ان لفرنسة جسداً وروحاً : جسداً يتقطع اليوم بقوة النار والحديد ، وروحاً تضطرب الماً في قفص الاستبداد والتحكم — اضطراباً يستدعي كل ما في صدور ابنائها من ايمان وفضائل وكل ما في العالم المدين للفكر الافرنسي من وفاء وعرفان لفرنسة الانسانية .

نسيم يزبك

حديث الزهر

عندي زهرة بيضاء طالعة من اصلها المستدير الاخضر ، اذا راقبتها العين رأت انها تطاول بعنقها رويداً رويداً ولا شيء يستر هذا العنق من الاوراق ، لان هذا النوع من النبات لا ورق له ، يشرق كالكرة المستديرة بستة عشر ضلعاً وفي كل ضلع من هذه الاضلاع شامات ذات اشواك يعلو بعضها بعضاً في نظام هندسي متناسب ، ومن هذه الاشواك تتعالى تلك الاعناق المخضرة السمراء مقدار فتر ، غير آبهة الا للنور والهواء ، ثم تنتشر براعمها المخملية البيضاء المتعددة وتفتح ثغرها الجميل المشرق حينما يسدل الظلام ستاره لتعانق الحياة بملء نضارتها وبهائها . .

وما ان يفتر ثغر الصباح حتى تسيل الحلاوة من قلبها ايضاً فتأخذ في الذبول والحياء الى ان تطبق اجفانها ويقضي عليها جنانها . .

هذه الزهرة تتكامل في ظلمة الليل تحت انامل الندى ، وتودع الحياة عند الضحى غير آسفة ، بعد ان حلا قلبها الشذا ، وعبث بها الهوى ولوى . .

ولكنها ذوت بنورها ونارها ، وذابت بشفائها وسنائها ، كما تذوب الشمعة مفنية ذاتها . .

هذه الزهرة تعطيك درساً بالجرأة على الحياة . فهي لم تجمع حياتها وتحافظ عليها ، الا لترسلها شفافاً من الاثير والبهاء ، ولم تتطاول بعنقها الا لتفتش عن دقائق الحب فتفتح لها قلبها وتقابلها بين تلك الخيوط الصفراء الضاربة في عمقها ، وفي كل خيط منها اسرار تتوجها المادة بغبار مذهب لا يقدر قيمته غير النحل ولا يدركه الا احساس الشاعر . .

هذه الزهرة ارى فيها كثيراً من طموحك واقدامك وطهارتك ، ولكنني لا ارى فيك ما اراه فيها من الثبات وعدم الشذوذ عن سنة المخلوقات . .

هي تكمل شوطها من البدء الى النهاية غير مترددة ولا وجلة ، وانت تقضين حياتك في الروعة مدلية وجهك شطر الظلام لا شطر النور ، وعاملة على خنق روح الحياة في قلبك ، حاجبة عنك ايضاً الهواء والماء ، ومعالجة ذاتك بالخشونة والجفاف . .

فأطلي بعنقك الجميل على الحياة ، وافتحي قلبك للمحبة ، ودعي النور يقبل محياك متلألئاً بين ثناياك الدرية ، مستفيضاً على ثغرك وشفتيك الناحلتين ، متدفقاً من عينيك البراقتين المخضلتين .

« خيرامي »

في الطريق الى الواحة

بقلم صلاح الاسير

كانوا في الظل ، يسيرون الى المستقبل ، تعلو جباههم غبرة البأس ، وعلى اساريرهم بسمات الطمأنينة ، كأنهم والفجر على موعد ، لا يتحدثون ولا يتنادرون ، يحملهم الليل في هودجه العجيب وديعة امة او قل وديعة جيل ، يتقلبون على كف الحياة ، ويعي الزمن انهم على غير النحو الذي تمخض عنه في هذه الحقبة العاقر ، ويباركهم الموعد . . .

كانوا ابداً في الظل . . . والمفازات فوق المفازات ، والليل بعد في الهزيع البكر ، واصداء القوافل الداعرة تتجاوب في الافاق المريضة ، ثم لا يلبث ان يتلاشى الرجع الماجن على حدود التراب ، وتتفتح عيونهم ، فالمرحلة عبرة ، ذلك ان ديمة جديدة انشق عنها السراب ، فغمرت وجودهم بالايمان ، واسبغت عليهم الزهو والقدرة ، وتركتهم على شوق .

وتزأر الريح الصرصر ، ويستحيل الصفاء رمالا تثور ، وخياماً يحملها العصف فاذا هي في ظن العين ، اشرعة تتهادى في بحر غاضب ، وتهدر النجوم بالخطيئة ، فكأنهن ابداً في مخدع البوح ، وتبكي احداهن فتتقارب الاضواء ، وتسيل الفضة ، ويثب الحادي للقاء الدمع النبيل . وتتابع القافلة السير كأن لم يكن الذي كان ، فلقد طهرها الزمن فاحسن تطهيرها ، وجعلها وفرة العتاد ، تجوس خلال الايام على بصيرة وهدى ، وتشارف الابعاد ، فالذين يهومون لها من بعيد ، كانوا عليها حتى الامس عبئاً مرزحاً ، شأن الورود الربيعية ، ترفل في الصباح بالاغراء الاحمر ، حتى اذا اقبل عليها مقبل وجدها دون فوح ، وتكفي يديه شوكة اسالت دمه ، فلون به اوراق الورد .

وكان فرحهم رائعاً سخياً ، ساعة بادههم الليل بلحن بعيد القرار ، تزفه جنيات الليل الحمر الحسان ، في الهنيهة التي تصل آنيهم بحاضرهم ، ويحتضر اللحن في البغتة ، وتغيم وجوههم ، والرجع بعد طري في اذهانهم يخلع على وحشتهم الآهلة ، بهجة وغبطة ، واستفهاماً ، وذكريات مختلفة ، تآلفت جميعاً لتكوّن لهم نعيماً طفلا . . .

ويقول كثيب لاخيه : « عجيب امر الصدى في هذا اللحن المسحور ، يرج على ضلوعي ، فتشربه الاعماق ، واذا به في البعيد يرج على ضلوع واحة نائية ، وليته بقي لي وحدي . وفي عرس الحدو طي العشية ، افتح جيوبي كلها للاصداء ، لعل احدها يستريح عندي ، وافرج عنه في يوم الذكرى ، يوم تهب علي طيوب الورود من الواحة ، فاشارك هذه القافلة بالصدى . .

ويقول كثيب لاخيه — تستهويك الجنازة . . كثيب — الحمراء . .

وقال قائلهم : « كم لبثنا . . »

واختلفوا فيما بينهم ، والشمس تضحك دون مثار النقع ، والقمر له ذيل طويل لا ينتهي ، ولم تبق سمراء في خباء ، والتفت على اديم وجوههم عيون الدنيا ، واقبلت الديمة من جديد ، تقول للطيب الحبيس في برعم الايام ، وهو يهمهم بمثل الشتائم : « خفف عنك ، فليس وراء جدارك الاخضر غير الموت . . » وظلوا في خلافهم ، هذا يزعم ان السبات غمرهم يوماً كاملا ، وآخر يزعمها اياماً ، وآخر يزعمها قروناً عدة . ويتململون في مواضعهم ، فتنهار عنهم ابرادهم ، ويضحون عراة حفاة ، يحاول واحدهم استرجاع الذي مر به فما يستطيع ، والدنيا ليل ، والاحجار تنضح على جسومهم البرد ، والاعصار يلف هداءتهم بالاهات الكبيرة ، وما زالوا في حالهم لا يحرك ساكن واحدهم واحسوا الجنون قد ذهب بعقولهم . هم يذكرون انهم كانوا قبل الساعة رجالا آخرين ، ويذكرون انهم اضاعوا شيئاً في حيرة وغموض ، فلو سألت احدهم لما استطاع ايضاحاً . وما عتموا ان غمرهم النوم من جديد ، كتلة من اللحم والدم ، لا تعرف لها حاضراً ، ولا تعرف الذي قبله ، وتكاد تعرف الذي ينتظرها ، فاعجب لطائفة ارتجلها القدر ارتجالا . . في ظن الناس .

هؤلاء نفضوا عنهم النوم ، ونفروا فجاءة ، ودب في عروقهم دم جديد ، تركهم خلقاً آخر . وتزاحمت الصور والذكريات في رؤوسهم ، تمسح الصورة الحية اختها الميتة ، والذكرى شقيقتها المحنطة ، وهكذا دواليك . . على وجه حبيب ، والليل يغمر الدنيا ، والطيوب تماوج ندية في اروقة السحر ، والقافلة على ضفة الموعد ، ويعاود الحنين افرادها الى ساعات الكفاح وايام الكدح ويكتسب الحنين روعة فائقة ، ويحس الاقاح في واحتهم شيئاً كالثورة ، وتحنو الافاق على اللقاء ، ويسأل الشوك الغصون عن هذه الضجة ، ويتعالى لحن من جديد ، تزفه عرائس الفجر ، بعيد القرار ، مطمئن التجعدات ، لحن له ظلال واعراف .

انهم والواحة على موعد ! . .

صلاح الاسير

في سبيل انشاء امة

صورة سيكلوجية للطفل



انت مولع كل الولع وحريص جد الحرص على ان تحتفظ بصورة لطفلك العزيز ، فتارة تحمله بين يديك ، وطوراً تضعه امام آلة المصور عاري الجسم ، لتظهر لك جميع اشكاله ، فتحتفظ بهذه الصور العديدة ، سنة بعد سنة ، وتجعل منها مجموعة ، كيما تقارن بين التغيير الجسماني الذي يطرأ على صغيرك الحبيب ، وهكذا تبقى الصلة رابطة قوية ما بين اطوار الحياة . .

ولكن هل فكرت يوماً بأن تحتفظ بصور هي اثمن بكثير من تلك التي تظهر اشكال طفلك الخارجية . تلك صور اتى بها العلم الحديث ، فجعل لمكانتها اكبر الاثر في حياتنا الفردية والاجتماعية : فالصورة الصحية يخرجها لك الطبيب ، والصورة السيكلوجية يخطها لك العالم بنفسية الاطفال .

فالطبيب يعطيك صورة واضحة عن التركيب الفزيولوجي ، وقوة الاعضاء ، ومقدرتها على تحمل التعب ، بينما السيكلوجي يصور لك الذكاء في مركباته واتجاهه . نعم ان الصلة بين الصورتين وثيقة العرى ، ولكن ، حباً في التخصص ، نود ان نتكلم وبصورة موجزة عن الصورة السيكلوجية التي تعطينا فكرة واضحة عن مقدرة الذكاء ونموه .

انه لمن البدهي ، تبعاً لآداب المجالس ، ان تطرح بعض اسئلة على الطفل عند زيارتك لوالديه او ان تستمع الى ما ترويه الام الحنون عن احاديث صغيرها ثم تمجد الخالق ، مهما كانت درجة الذكاء او الغباوة على ما ابدع .

انت تحذو في ذلك حذو العالم النفساني ، ولكنك تخفي الحقيقة احياناً رغم ما يكتنفها من الغموض ففي السؤالات الشائعة عندنا نجد بعض الشبه بينها وبين اسئلة اختبار الذكاء التي وضعها (بينه سيمون) .

هاك بعضها ، وقد اعدت لاطفال في الثالثة من سنيهم :

— اريني انفك ، عينك ، فمك . .

— ما اسمك ، واسم ابيك ؟

سؤالات عديدة تتدرج في الصعوبة ، فتحدد مقدرة الذكاء وترافق نموه في جميع اطواره .

فالاطفال يختلفون في الاجابة ما بين غنيهم وفقيرهم لما للوسط العائلي من تأثير في نفوسهم . وهذا ليس بدليل على ان الصور الاولى هي برهان قاطع على ذكاء او غباوة الشخص ، لان النضج والعمل المدرسي هما كفيلان لرفع الطفل الى المستوى الطبيعي ، ان لم يكن عنده مرض عقلي .

حبذا لو نعنى العناية الكافية باطفالنا حكومة وشعباً ، فنحمل صغارنا الى اخصائيين فنيين في تصوير الذكاء سنة بعد سنة لنتوصل الى امكانية توجيههم في هذا المجتمع .

منير النصولي

عوج بن عناق وميكروميغاس

بقلم الياس ابو شبكة

لفولتير قصة فلسفية اسمها « ميكروميغاس » وميكروميغاس اسم يوناني مؤلف من كلمتين : ميكرو وميغاس، اي صغير كبير . ويقول تاريخ الادب ان فولتير قلد في قصته هذه احدى قصص الكاتب الانكليزي سويفت ، وقد جمعها هذا الاخير في كتاب اسماه « رحلة غوليفر . » فاذا كان صحيحاً ان فولتير قلد سويفت فليس صحيحاً ان سويفت ابتدع بدعة كما يدعي تاريخ الادب . ومما لا شك فيه ان احد الاثنين اطلع على كتاب الاساطير العربية وفيه قصة « عوج بن عناق » التي لا تشبهها قصة كما تشبهها قصة ميكروميغاس . وليس وجه الشبه بين « عوج بن عناق » و « ميكروميغاس » مثله بين « رسالة الغفران » و « المهزلة الالهية » فاذا كان الشاعر الفلورنتيني دنتي نسخ خطة « المهزلة الالهية » عن « رسالة الغفران » واستعان بالشاعر اللاتيني في طوافه مناطق العقاب والثواب كما استعان الشاعر العربي بابن القارح في طوافه حلقات النعيم والجحيم فالكاتب الفرنسي العظيم تجاوز ذلك في قصته التي تهكم فيها على خصمه ده فونتنيل الى نسخه ليس خطة « عوج بن عناق » فحسب بل الافكار التصورية التي بنى عليها القصاص العربي قصته هذه ، ولم يأت من عنده بسوى الخواطر الفلسفية التهكمية التي هاجم بها خصمه ده فونتنيل . وبما ان قصة « عوج بن عناق » طويلة لا تتسع لها وحدها هاتان الصفحتان من « الاديب » فسنختصر بعض صورها لاثبات الشبه العظيم بينها وبين قصة « ميكروميغاس . »

يقول القصاص العربي ان « عوج بن عناق » مارد من سكان الكواكب هبط الى الارض يرافقه احد الاقزام من ندمائه . ويصف هذا المارد الجبار فيقول ان المسافة التي بين كتفيه ثلاثة فراسخ ، وبين انفه وعينيه نصف فرسخ ، وطول يده اربعة فراسخ ونصف فرسخ ، وانه يمر بالاوقيانوس فتكاد رجله لا تشعر بالرطوبة . واذا جاع تناول بضعة حيتان وشواها على القمر في الليل وعلى الشمس في النهار . ومما يذكر عن عوج بن عناق انه كان يقيل ظهيرة يوم فشعر بتنميل في رجله ازعجه ، وفيما هو يحاول نفض الهوام عنها مرت قافلة فطلب من رجالها ان يطردوا الحشرات المعششة بين اصابع رجليه حالما يصلون الى هناك . ولما وصل رجال القافلة بعد مسيرة طويلة الى رجلي المارد شاهدوا قطعاناً من السباع ، من الاسود والنمرة والفيلة ترعى في مطاوي اصابعه وعلى اظافيرها .

واليكم الان كيف يصف فولتير عملاقه ميكروميغاس . يقول الكاتب ان طول ميكروميغاس ثمانية فراسخ اي اربعة وعشرين الف قدم . فعندما يبلغ هذا الفتى اربعمئة وخمسين عاماً من عمره ، اي عندما يوشك ان يخرج من عتبة الطفولة الى الشباب ينصرف الى تشريح حشرات صغيرة لا تتجاوز مئة قدم وتكاد لا ترى بالمكرسكوب العادي ويؤلف عنها كتاباً مدهشاً يذيع صيته . على ان حاكم الشعرى اليمانية التي ولد فيها ميكروميغاس يرى في الكتاب ما يدعو الى الشبهة فيأمر بمحاكمته بمادة الالحاد لان الكاتب بحث في هل ثمة اتفاق بين طبيعة البراغيث في الشعرى اليمانية وطبيعة الحلزون؟ وتستمر الدعوى مئتين وعشرين عاماً يدافع خلالها الكاتب عن نفسه بمساعدة النساء، وتسفر النتيجة عن فوز الحاكم بمعاضدة رهط من العلماء الذين لم يقرأوا الكتاب وعن نفي الكتاب ومؤلفه مدة ثمانية قرون . ولكن ميكروميغاس لا يأسف لنفيه بل ينظم انشودة يتهكم بها على الحاكم ويتنقل من كوكب الى كوكب كالعصفور من غصن الى غصن ، فيجتاز المجرة بوقت قصير وينتهي به السير الى زحل الذي يسكنه اقزام لا يتجاوز طول الواحد منهم ستة آلاف قدم . ولا يكاد يرى هؤلاء الاقزام حتى يرتد الى رشده ويدرك ان العقل لا يقاس بمقياس الطول والعرض وان قزماً لا يتجاوز طوله ستة الاف قدم قد يكون على جانب من الذكاء عظيم ، فيسعى الى التقرب من الزحليين ويتعرف الى كاتم اسرار المجمع العلمي الزحلي ، وهو رجل واسع المعارف لم يخترع شيئاً في حياته ولكنه يعطي آراء صائبة في مخترعات الاخرين وينظم بعض المقاطع الشعرية فيأنس به ويرتبط معه بعرى صداقة متينة ، وبعد مباحثات تدوم ثلاثين عاماً يقرران القيام برحلة فلسفية .

واذ الفيلسوفان على اهبة السفر في اجواء زحل تسرع حبيبة الزحلي دامعة المقلتين كئيبة القلب تؤنبه على عمله السيء ، وهي فتاة تكاد لا تبلغ ثلاثة آلاف وتسعمئة وخمسين عاماً من عمرها فتقول له : يا ظالم اتهجرني بعد ان حافظت على حبك الفاً وخمسمئة سنة وارتميت بين ذراعيك قرناً كاملا لتقوم برحلة لا اعرف لها سبباً مع جبار هائل جاء من عالم غير هذا ؟ اذهب فما انت الا خائن ناكث العهد لا حب في صدرك ولا وفاء . اذهب فلا خير في الرجال وليس اسخف من امرأة تحب رجلا . فلا يتردد الفيلسوف ان يطوقها

بذراعيه ويبكي معها برهة طويلة ، ولكن الفتاة عندما تشعر بان لا بد من هجرها تذهب فتعزي نفسها بين ذراعي سواه .

ويسافر الفيلسوفان فيقفزان من قمر الى قمر، واذ يقطعان مسافة مئة وخمسين مليون فرسخ يصادفان المشتري فيمكثان فيه عاماً كاملا يكتشفان خلاله اسراراً غريبة كانت ولا ريب تحت الطبع لولا قلم المراقبة الذي رأى فيها بعض مسائل غير صريحة . ثم يتوجهان الى المريخ بعد اجتياز مئة مليون فرسخ، والمريخ كما يعرف الجميع دون مساحة الارض بخمس مرات ، فيجدان فيه قمرين لم يتوصل الى اكتشافها العلماء الفلكيون ، ولكنهما يخشيان ان لا يتوفر لهما فيه محل للنوم لصغر محيطه فيمران به كما يمر المسافر بحانة قذرة ، واذ يقطعان مسافة طويلة يتراءى لهما شعاع ضئيل ينبثق من الابعاد . كان هذا الشعاع كرة الارض الصغيرة . ويستمران في السير فيعبران مذنب هالي ويشخصان الى الامام فيبصران الفجر فيركبانه الى ان يبلغا الشاطىء الشمالي من المحيط البلطيقي . وبعد ان يستريحا قليلا ويأكلا جيلين كاملين يشوقهما ان يعرفا في اي بلد هما فيتوجهان اولا من الشمال الى الجنوب ، وكانت خطوة ميكروميغاس تبلغ ثلاثين الف قدم او اكثر ، اما القزمة الزحلي الذي لم يكن له من الطول سوى ستة آلاف قدم فكان يركض خلف الجبار بتعب شديد . وبعد مسيرة خطوات قليلة يصلان الى ذلك المستنقع المعروف بالبحر الابيض المتوسط بعد ان يعبرا الغدير الصغير المعروف بالاوقيانوس فلا تغمر المياه سوى النصف الاول من ساق القزمة . اما ميكروميغاس فلا يكاد يتبلل عقب حذائه . وفي هذه الاونة ينقطع عقد الماس على صدر العملاق وتنفرط الجواهر واكبرها تزن مئتي الف غرام فيستعملان اثنتين منها ميكرسكوباً . وبعد جهد يتمكن الزحلي من رؤية شيء دقيق يتحرك بين موجتين . كان هذا الشيء حوتاً فيأخذه ببنصره ويضعه على ظفر ابهامه ويعرضه على ميكروميغاس .

ويواصل فولتير قصته ليخلص الى النتيجة الفلسفية متهكماً على خصمه ده فونتنيل ، ولكن ما يهمنا من هذه القصة هو تسلق فولتير على الخيال العربي في الوصول الى مرماه الادبي ، ودحض ما يقوله تاريخ الادب من ان الكاتب الانكليزي سويفت ابتدع بدعة في كتابه « رحلة غوليفر » التي لا نشك في انه قلد فيها كتاب الاساطير العربية .

الياس ابو شبكة

على نعش الحلم الذابل

لاحمد شكري سالم

◆

كنت في مقلتيك وهج اللذاذات ... وفي جفنك ارتعاشاً وحلما
كنت في وجنتيك ظل احمرار ... وعلى مرشفيك شوقاً مدمى
كنت يا منيتي شروقاً على دنياك ... حلوا ، ومطلع البدر تما
كنت بالامس ، يا نعيمي ، في ومضات عينيك كوكباً مستحما
كنت ظلا من التوله والحب ، وافياء من هناء ونعمى
جفت الكأس ، يا منى الكأس والخمر ، وراحت خمائل الحب وهما
واختفى الصحو والربيع المندى ... في غشاء من الضباب الما
اقفرت من غرامنا الطلق اظلال الدوالي ، وافقهن ادلهما
صرت في عينك احتضار اغاريد ... وافقا كجانح الليل جهما
صرت في وجنتيك لون اصفرار ... وذهولا غشى الجبين وغما
وارتماء مرا تفجر بالدمع ... وخفقا يفيض بؤساً وهما
غل اغراسك الاسى وتهدلت عناء ... وحال صحوك غيما
وانطلاقاً من يقظة الكون والدنيا وغفوا ... اثر اللذائذ جما
.. نزوة تلك من جنون شبابي ... فاحسبيها في خدعة الفكر حلما

دمشق – احمد شكري سالم

فصلان من قصة

بقلم عمر فاخوري

١
الجنـــــــــازة

وانه هو اضحك وابكى، وانه هو
امات واحيا.. سورة النجم

من يلقه ماشياً في تلك الطريق الوحلة التي تصل البسطة التحتا بمحلة حوض الولاية، متباطئاً كالمتردد او كالوجل، لا يتمالك من السؤال: «ماذا به؟ أتراه يخاف ان يغادر احذيته في هذه المادة الرمادية اللزجة الضاربة الى السواد، التي يلطخ المطر بها ازقة المدينة، ام تراه يفتش عن شيء اضاعه؟» يداه في جيبي بنطلون هو بالسراويل اشبه، لسعته وتكوره مذ عفّت الايام على طيات المكواة. محدودب الظهر، محني الرأس، موزون الخطى – كالمؤاجر في جنازة. وكأن طربوشه القاني على رأسه الاشيب، احد اكواز الشمندر التي كانت هناك، على مقربة منه، في صحاف مشرقة بيضاء، تثير نهم الصبية الراقلين في ثياب جدد، خلعها عليهم عيد الفطر السعيد، اشكالا والواناً.

ليس على وجهه النحيف سيماء الكآبة التي تستوقف الناظر لاول وهلة، كأنما كشف له بغتة عن سر حزن بليغ او خطب جلل. لكن المتأمل البصير يلمح في تلك الغضون السمراء اماثر السآمة والعياء الشديد، التي تكاد تقول: «مالي ولهاتين الرجلين اجرهما، منذ اربعين عاماً ونيف، على هذه الارض اللدود، جرا؟ مالي ولهذا الجسد لا افتأ احمله، غير عالم هل اتقاضى في النهاية اجرا، ام يذهب تعبي باطلا؟ ومتى احط هذا العبء الثقيل، فترتاح اخيراً نفسي؟» لو انطلقت الغضون في وجه علي العلوي، الاسمر النحيف، لا سمعت مثل هذا الكلام، كأن الرجلين اللتين تقلانه رجلا غريب مر منذ هنيهة امامه دون ان يراه، او كأن الجسد الذي يحمل نفسه، متنقلا بها شرقا وغربا، جسد جار له يزعجه، كل ليلة، صياحه وولولة امرأته وبكاء صغاره.

والواقع ان علياً عاش هذا العمر المديد لم يعرف لحياته غاية قريبة يوشك ان يضع يده عليها، او بعيدة يعلل صبره بالدنو منها: لم يعرف غاية يلهيه دركها او السعي اليها عن النظر في ذاته وفي هذا الجثمان الذي يحمله «هو» كما تحمل السلحفاة بيتها. عاش كما يمشي الان – الى غير غاية، لا يسرع في خطاه كمن يخاف ان تفوته فرصة سنحت له ولن تنتظره طويلا، ولا يقف مرة كمن يريد ان يملأ عينيه وفؤاده من شيء اعجبه.. كان يمضي في سبيله لا يلوي على احد، فاذا التفت يمنة لم يلتفت يسرة الا بعد حين، اقتصاداً في الحركة.

فيم كان يفكر علي العلوي، وهو ينظر في مواطيء قدميه، من الطريق الوحلة، اذ ليس ثمة غير هذا يديم النظر فيه، وكأنه يقرأ في كتاب، متهجئاً، حريصاً على كل حرف من حروفه؟ لعله كان يفكر في الارض – عدوه اللدود – التي ما برحت تجذبه بالرغم منه، وهو يود لو ينطلق من اسرها، فيطير في الفضاء، ويصبح من تكاليف هذه الحياة في نجوة! وتبا لنيوتن «مخترع» الجاذبية كما كان يسميه، فهو اصل ذلك البلاء، وليس اجدر منه بان يحشر مع الاطباء «مخترعي» الامراض كما كان يلقبهم. ليت علياً كان «نفساً» فحسب! اذن لكان الامر هيناً.. ولكن ما العمل بهذه «الجثة» بيت السلحفاة، كما كان يقول في احاديثه؟

ولعمري، هل الحياة دين لا بد من قضائه؟ فان علياً، وقد عرف القروض بانواعها، لا يذكر انه

استشدان فيما مضى ، شيئاً من هذا القبيل .. وطالما حدث ذاته بالخروج من الدنيا الدنية مختاراً ، لا له ولا عليه ، فكانت تعوزه الجرأة على رأي بعضهم ، او يعوقه الكسل على رأي البعض الاخر من صحبه ومعارفه ، اولئك الخبثاء الذين لقبوه بهذا اللقب العجيب ، حتى كاد ينسيه اسمه الاول ولا يعرفه كثير من الناس الا به — نعني : حنا الميت . وعلى كل ، فهو منذ غلب عليه لقبه ، لم يفكر ابداً بالانتحار ، كأن اللقب كفاه هذا العناء ، واراح باله من هموم النقلة . حنا الميت ! . فكيف تريدون ، يا رعاكم الله ، ان يموت الرجل مرتين ؟ .

ولم يشعر علي العلوي الا انه دائر على محوره كرحى مستطيلة ، طربوشه الاحمر على قاب ذراع ، في بركة من الوحل ، وهو بين صبيين بثياب العيد ، في كر وفر ، وطرد وعكس ، يتجاذبان اطرافه جاكتة ويضحكان .

عاد علي العلوي ادراجه ، والظلمة آخذة في اخفاء معالم الاشياء . وكان في مشيته ابطأ من ذي قبل ، يهم ، كلما دنا من القنديل الذي يضيء في عطفة الطريق ، ان يقف مستبشراً بهذا الظل الامين يصحبه لحظة ثم يغيب في الجدار . ومن رأى الرجل وظله ، هذا يزحف وذاك يمشي ، خيل اليه انهما علي العلوي وحنا الميت ، كأن الواحد صار اثنين كي يأنس بعضه ببعض في وحشة الطريق . لكن حان ميعاد الرجوع الى البيت ، فاسرع علي وظله في خطوهما ، وقد دار بينهما حوار ذو شجون ، اتهم فيه علي ظله اللاصق بالارض ، بمساعدة اعدائه على الكيد له ، اي لنفسه العلوية . وعبثاً حاول المسكين ان يعدو كي يطأ عنق هذا الماجن ، تشفياً من ظلم المادة .. فكان الظل تارة خلفه وتارة قدامه ، منقبضاً طوراً وطوراً منبسطاً ، حتى اعيا خبطاً ولبطاً ، وبلغا البيت .

اذا كان عامة الناس يعرفون كل سنة من حياتهم بيوم سعد او يوم نحس ، بالذكريات الحسنة او السيئة ، فعلي لم يعرف الا اعواماً متشابهة ليس في احداثها ما يخصه بالذكر ، لخير او لشر . واذا كان عامة الناس لا يعنيهم من سنيهم الا ذلك اليوم ، مطرحين سائر الايام ، كما يطرح المسافر الامتعة المثقلة المربكة التي لا فائدة منها ، فعلي لا يدري الا ان الاقدار حملت كتفيه اربعين عاماً بكل شهورها وايامها ، كالمسافر الذي يحمل الا سقط المتاع ، غير عالم اين ومتى يحط الرحال . وكان يسميها « الاربعين خريفاً » نكاية بـ « الاربعين ربيعاً » .

ومشى حنا الميت ، محدودب الظهر ، محني الرأس ، موزون الخطى — وقد خيل اليه ، بمثل لمح البصر ، انه يمشي في جنازة نفسه ، وانه عما قليل سيقف ، متقبلا التعازي ..

وفي صبيحة اليوم التالي كان في فراشه يتلهى باستعادة ما رآه في الحلم تلك الليلة ، عما ينتظره في نهاره الجديد ، اذ اتوه برسالة قرأ على غلافها هذا العنوان :

> بيروت : برج ابي حيدر
>
> جناب « المرحوم » السيد علي العلوي المحترم

فلم يفض علي الغلاف ، واسترسل في تفكيره هنيهة وهو يعبث بطرف الرسالة متلطفاً ، كأنه يعرك اذن حبيب متجن ، ثم قال : « صديق يحب المزاح .. لكن لله ، ما اشبه مزاحه بالجد ! »

واغمض عينيه ، مبتسماً لرؤيا حلمه الرغيد .

٢

الاســــم والذات

.. فليس عبد الحليم هو عبد الكريم ؛ وليس
عبد الغفور هو عبد الشكور . فكل عبد لاسم
هو ربه ؛ وهو جسم ذلك الاسم قلبه ..

ابن عربي : الفتوحات المكية

الم يكف آله ، آل العلوي – لله درهم ! هذا اللقب الشامخ كنخلة في واد ، حتى اسموه عليا ؟ اعليّ ايضاً ؟ عليّ العلويّ (بالياء المشددة مرتين) ! الى اين ؟ الى اين تريدون هذا المسكين ان يصعد ، وهو منذ ميلاده ما انفك هابطاً ، هابطاً ؟ من رفعة اسمه الى ضعة ذاته .

رحم الله الشيخ علي الضرير ، مقرىء ابيه وجده ، فهو الذي جنى عليه يومذاك ، عن غير قصد ، اذ خرج من داره مبكراً الى مسجد الحي ، فصلى الصبح حاضراً . وبعد ان تلا ما تيسر من آي الذكر الحكيم ، خطر لباله ان يفاجيء تلميذه القديم ، الحاج حسن العلوي ، بزوزة عجلى خفيفة لا تضيق بفنجان البن العدني « ونفس » التنباك العجمي ، وقد عرف هذا البيت الكريم باقتناء اطيبها طعماً وريحاً . وانه لمن محاسن الاتفاقات ، بل التوفيقات ، ان تكون في القهوة والنارجيلة قرة عين شيخنا الحافظ العارف بالله ، الذي لم تشأ العناية ان يغض جفنيه عن مفاسد العالم الا لتفتح قلبه لنور الايمان ، ولم تفرغ صدره من فضول المعارف الانسانية الا لتعمره بكلام العزيز الجبار ، وبقرءآته السبع ، او العشر ، على قول بعض مريديه الابرار .

وهكذا قدم الشيخ على تلميذه الحاج حسن زائراً ، في غير اوقات الزيارة ، كأن قوة خفية قاهرة همست في اذنه ، عند منصرفه من المسجد :

– يا شيخ علي ، قم الى بيت الحاج حسن .

لكن ألسنة السوء – وهل يسلم من اذى الحاسدين رجل كالشيخ علي آتاه الله بسطة في الرزق والجاه ؟ ترعم ان تلك القوة الخفية كانت متمثلة ، ذلك اليوم ، في شيطان القهوة العربية والنارجيلة العجمية ، فهو وحده يوسوس في صدر الشيخ مغريا اياه ، من حين الى حين ، بمثل هذه الزيارات الشاذة ، وكفى !

ولا ريب انه كان يوماً مشهوداً في دار الحاج حسن ، رزقه الله فيه غلاماً ذكراً بعد طول رقبة ، جزاء صبره على البنات الثلاث اللواتي تعاقبن في السرير المطعم الشامي . فكان ، كل دفعة ، يحمده تعالى على مضض ، انما يحمده في كل حال . والعجيب من أمر هذا الغلام المنتظر انه جاء عند منتصف الليل ، معكوساً ، مستدبراً الدنيا ، كأنه يهم ابداً بالرجوع ، فقاست امه من الوضع أشد اوجاعه ، حتى كادت

تصح فيها الآية الشريفة : « يخرج الحي من الميت » . وتقبلته اسرته كرسالة بريد « متكسة » يشفع فيها انها تحمل نبأ ساراً ، ويا للبشارة !

اذن لم تكن سن صاحبنا الصغير قد جاوزت بضع ساعات ، لما ولج الشيخ باب الدار ، وهو يضرب بعصاه الارض صارخا : « يا الله » ايذاناً بقدمه . ولسنا نخشى لومة لائم اذا قلنا ، منذ الآن ، ان الشيخ والطفل جاءآ الى بيت الحاج حسن العلوي كأنهما على موعد . لكن الاقرب الى الصواب ما زعمه بعض الراسخين في العلم ، من ان هــذا الشيخ الجليل كان ، صباح ذلك اليوم ، أشبه شيء بزحل او المريخ في بروج السعد والنحس ، فالعلوي الصغير قد ولد تحت طالع الشيخ علي ، المقريّ الضرير .

كان الشيخ ، اذ اتوه بالطفل ليبارك فيه ويدعو له ، يتخلل من بقايا اللوز والفستق والصنوبر العالقة بين اضراسه ، بعد ان انتقل « المغلي » من الصحيفة الى جوفه ، بمثل لمح البصر ، مكشراً عن ثنايا سوداء نخرة ، كأثافي منسية في غُويِر قزمة ، مهجور . فلم يتكلف مؤنة الابتسام لهذا القادم الجديد ، وظل مكشراً عن سبعين عاماً عجافاً تهم بافتراس شي. خيالي لم يكد يخلق ، لعله يستقبل العلوي الصغير . والله يعلم أي مزيج من دهشة ورعب و « قرف » شاع في جثمان الصبي الرطب ، واختلجت به نفسه الهلامية ، اذ جعله ابوه في حجر الشيخ ، كأنما اسلمه الى القدر ، متخلياً عنه وسط عالم محفوف بالمخاطر والاسرار ، تفوح منه روائح مريبة . فبسط الاعمى كفــاً عريضة ترددت هنيهة حول رأس الطفل ، حتى اذا آنس نعومة تلك الكرة الرخصة ، أمرّ يده على سطحها الزغب ، بما وسعه من رفق ولين ، متمهلا عند يافوخه الطري كالمطاط ، لحظة واحدة شعر فيها بلذة غريبة لم يكد يعيها ، لقصر امدها وبعد غورها في سويداء نفسه ، كما لم يشهد احد بريق الشراسة الوحشية الذي لمع في ظلمة عينيه المغمضتين . وكان الحاج حسن يتقدم لمرأى يد الشيخ الغليظة ، وقد غطت على رأس طفله ، كأنما اكتسى بغتة بشعرات فاقع لونهــا ، متجمعة هنا ، مبعثرة هناك ، اذ راعته زجرة الاعمى وهو يقول ، قابضاً برأس الصغير :

— يا حاج حسن ! .. هذا علي .. الشيخ علي .

وعلا صوت الصبي بالنحيب .

علي العلوي ! . هكذا اقترن الاسم واللقب ذلك الاقتران العجيب ، على يد الشيخ المقريّ ، التي طالمـا فاضت ببركات غير منظورة . ومن لا يعرف الشيخ وتوقره وانفته من سفساف الامور ، حسبه اراد التاجن اذ ركب على رأس هذا المخلوق الضعيف تاجاً من تيجان السلاطين . لكن علياً الذي نا. بثقل اسمه ، طيلة عمره ، كثيراً ما تساءل ، وحقه ان يتساءل : « لو ألهم الشيخ رحمه الله ، ان يختار لي غير هذا الاسم الباهظ ! لا بد من الكنى والالقاب ، سلمنا .. على ان اسعد برهة في حياتي هي فترة ما بين مولدي وتسميتي . ولكن علام لم ادع : عبد المولى ، او الصمد ، او الرحمن ، بل عبد أي اسم آخر من الاسماء الحسنى ، وهي — ولله الحمد ، من قبل ومن بعد — كثيرة ؟ »

بمثل هذا كان علي العلوي يخاطب ذاته ، كلما اتفق له ان يلقي على الكون واحداثه ، والحيــاة وتكاليفها ، من قمة اسمه الشامخ ، نظرة خاطفة ، فيخيل له انه في مئذنة ، ويصاب بالدوار .

عمر فاخوري

في خدمة التاريخ العربي

«فاطمة البتول» و«طارق بن زياد»

بقلم نزيه الحكيم

◆

في يقظات الشعوب عودة ابداً الى الماضي . كما يحلم المريض الذي تعود اليه الحياة بايام صحته يزينها خياله بالجمال والقوة ، ويرى من خلالها صورة المستقبل الذي تهفو له آماله، تحلم الشعوب المتيقظة بجمال ماضيها ، تملأ فراغه ، وتلون بساطته ، وتسكب على عيوبه ونقائصه كمال الاسطورة ، ثم تمتد بها هذه الاسطورة فاذا هي صورة الآتي الذي تتماوج ظلاله في اعينها ، واذا المجد الماضي خطوط اولية في الخيال الذي تكونه عن المجد المقبل ، واذا تماثيل العظماء والابطال تملأها الحياة ، فتتحرك من جديد وتسير في الطليعة ، رمزاً لكل فرد من افراد الامة الناهضة . — من هـذه الاسطورة الحية التي يخلقها الواقع يتغذى الوعي القومي وينقلب الفخار بالمجد الماضي ايمانا باستطاعة اعادته في المستقبل . ينمو الطفل وينمو في نفسه الشعور بكل المسؤولية التي يلقيها عليه ماضي امته الذي يحيا في كيـانه العميق ، وتضطرب الاسطورة في عينيه وهي تضحك ، تبتسم له وتمهد امامه السبيل . الوعي القومي ليس « وعيـاً يبعثه الدرس العلمي ، وادراكا يخلقه البحث المادي » . (١) العلم يساعده على النمو ويثبت من دعائمه كما يفتح الندى اكمام الورد ، ولكنه كاكمام الورد يحيا في لاواعية الشعوب قبل العلم وقبل التفكير . والعودة الاسطورية الى الماضي مظهر من مظاهر هذا العلم ، وقطعة من مرمر الجبل ينحت عليها الشعب تمثال وعيه المتجسم . وهي عودة لا بد منها لان كل يقظة قومية تفترض في ذاتهـا تذكراً للماضي واستشعاراً له يملأ جوانح النفس . وتناسي الماضي الذي يريده بعضهم ليذوب في الواقع الحاضر وحده هو عملية مستحيلة ومخجلة معاً . ان وطناً ما لا وجود له الا في مجموعة افراده الذين يمتد فيهم تاريخه الماضي وتهيأ في حاضرهم تاريخه المقبل ، ولذلك لا يملك هذا الوطن اية قيمة الا بمقدار الحماسة التي يستطيع ابقائها في نفوس هؤلاء . وليس الا الذكرى والحنين والحقد من باعث على الكبرياء والحماسة . والايمان بانسانية تعاونية حرة ، لا حماسة فيها ولا كبرياء ، تقبل التساوي في اليقظة والمكانة مع القوميات الاخرى ، هو استخذاء واضح وذعر من تعصب وحشي لا وجود له .

هذه العودة الى الماضي يساعد عليهـا قبل كل الناس الادباء والفنانون . الشعوب تنسج اسطورة تاريخها بايديها ، ولكنها — في عفويتها وبساطتها — تظل ساذجة الخلق ضعيفة عناصر الابداع . والادباء والفنانون هم وحدهم الذين يقدمون لاساطيرها الحيـاة المنسجمة الموحية . — بهذا المعنى فقط يكون في عـالم الفكر « رجعية » ضرورية محببة ، ويكون في رجعية الادباء والفنانين المتمسكين بالمـاضي يحبونه ويمجدونه وينسجون حوله الاساطير ، جهد تقدمي رائع ، يماثل ما يبذله بقية المناضلين في الميادين الاخرى من العمل القومي .

* * *

كل هذا ليس مقدمة . هو في صميم موضوعي لاني اريد ان اتحـدث عن معروف الارناؤط كشاعر ملاحم ، ومؤرخ اساطير قومية . فمنذ امـد قريب اخرج هذا الكاتب العربي روايتين جديدتين يجب الا يمر بها المؤرخون والنقاد صامتين غير مبـالين ، وان يتخذا مكانهما في مطالعاتنا كحجرين جديدين في بنـاء التاريخ العربي .

كانت قد طالعتنا في « سيد قريش » و « عمر بن الخطاب » صورة اولى حلوة للوثبة العربية التي يمثلها الاسلام ، فاذا انت امام شعب فتي ، قوي الشباب ، خصب القابليات ، يغزو العـالم بحضارة جديدة شابة ، ويضفي عليه وهجاً من عاصف ايمانه وشعاعاً من الحاح امانيه ، واذا معروف الارناؤط يسير مع القـافلة ، يكتشف في الجاهلية بذور حضارة الاسلام ، ويطهر النفس العربية من كل رجس ليرد اليها خصائصها الاصلية .

وتطالعنا الآن في « فاطمة البتول » و « طارق بن زياد » ، تتمة هذه الصورة فبعد النبي العربي محمد ، وبعد الخليفة العربي عمر ، نخطو خطوة واسعة في بداية العهـد الاموي ، حلقة جديدة من اسطورة جمة الحلقات .

« فاطمة البتول » هي سيرة الحسين السبط . هذا الفتى الذي تتراءى على وجهه صورة جده النبي ، على صوته نغمة من صوته ، وعلى

(١) نظير الموصلي . « الصباح » الدمشقية ، العدد (١٩)

جبينه نور من جبينه ، وفي عينيه ذكرى من نظرته ، هــذا الفتى هو رمز المثالية العربية . و « فاطمة البتول » كلها ليست الا قصة هذا المثل الاعلى الذي يرتفع ويحلق ويحاول الانطلاق الى السماء ، ثم تجره حبال من الارض فيرتطم جبينه بحجارة الطريق ، لانه — وهو يتأمل الافق — كان يفوته ان يرعى مواضع قدمية . وتكتشف، وانت تقرأ هذه الرواية ، كيف يترج المثل الاعلى بالانانية يغذيهـا وتزيــده قوة . ولن يدهشك ان ترى الحسين بن فاطمة ، الذي ينسى نفسه وزوجه وابنــاءه ليلبي نداء السراب ، زعيماً ككل الزعماء ، يلذه هذا الجمع الحاشد الذي يلتف حوله ، محباً له معجباً به وتأخذه صوفية الزعامة عن كل شيء . فيتقدم بموكبه موكب خصمه امير المدينة ، ويرضيه ان يكون قائد جيش ، وحلم امة ، فلايبالي ان يقتل صحبه امــامه ، وان يقضي ابنه بين يديه ، وان ينتظر بدوره الموت الذي لا يلبث ان يأتي في سبيل الفكرة التي خرج من اجلها الى العراق .

اما « طارق بن زياد » — او على الاصح الجزء الاول الذي صدر منها حتى الان — فهي اسطورة المجد والفتوح في افريقيــة واسبانية . هذه الارض التي انتجت « سالامبو » غوستاف فلوبير، اروع كتاب عنها جمع بين الحقيقة والاسطورة ، هذه الارض هي التي تنتج اليوم اسطورة معروف الارناؤط ويتراءى امامك الجيش العربي ، هذه « الانشودة البارعة التي لبست الحديد والنحاس » في ظل عقبة بن نافع الذي ندبه معاوية للفتح فــاذا هو « امير الجيوش وفاتح افريقية وباني مدينة القيروان على انقاض مدينة قرطاجنة» . يتراءى لك هذا الجيش وهو يلتهم الارض السوداء ويقتحم على اهلها الجبال والسهول، ليجعل منها الى الابدجنة هذا الشعب العربي الذي « انبعثت احلامه في صحراء لا يضحك فيها النبات » . ثم تمتد بك هذه الاحلام الى اسبانية عبر البحر فتمتطي السفينة مع عقبة في تجربة الذهاب الى سبتة وترى الى مغيث الرومي وهو يؤدي واجبه في حدائق طليطلة لا يمنعه حبه ان يذكر رسالته في قومه .

مالي وللحوادث اجمعها واحاول « تكثيفها » في سطور ؟ ان قيمة الاسطورة ليست في خطوطها الكبرى، هي ابداً في الدقائق والتفاصيل ، وفي انها لا يمكن ان تروى على غير الاسلوب الذي وضعت فيه . الاسطورة كالشعر لا تجوز فيها الشروح والتفاصيل، وكالشعر لها نغمتها الخاصة وجرسها الذي لا تخرج عنه .

ولقد كنت بفاطمة البتول اقل اعجابا مني بطارق بن زياد . «فاطمة البتول» اقوى فناً واكثر احكاما في « البناء » . شخصياتها واضحة معينة لا تشابه فيها، وفي فصولهـا القصيرة محاولات لا تبعد عن النجاح واسلوب ماتع شديد الاسر . ولكنها كلحمة قومية اقل شأناً من «طارق بن زياد» . كان لا بد ان يصطدم الشعب العربي بغيره من الشعوب ليستطيع الكاتب ان يظهر قيمته وان يوضح من خلال اسطورته نفسيته . وكان لابد ان يمتد الجيش العربي عن ارضه ليبدو اثره في ارض الاخرين . وبالرغم من ان هؤلاء العرب البداة تكاد تضيق نفوسهم احيانا على قلم معروف الارناؤط حتى لا يملكوا الا عواطف معينة وحتى لا يبدو للعربي في احلامه الا الله والامير، فانهم قــد استطاعوا في هذه الرواية ان ينقلوا دمشق الى الاندلس وان يحملوا رهبان اسبانية الذين امضتهم العزلة في الصوامع وجففت قلوبهم عتمة الدهاليز يحسون ليونة في الطباع ورقة في الاخلاق ونضرة في الافهام منذ حمل اليهم هؤلاء الغرباء ازهار وطنهم واشجــار تربتهم واخلاق ذويهم وشمائل اهلهم » .

وفي طبيعة الاسطورة الرمز ، كما تعتصر الورود فتضع خلاصتها في زجاجة ، يلخص الرمز الخرافة فيوحد اجزاءها ويساوق الوانهـا المتباعدة . وتكاد تجد اثر هذا الرمز في كل صفحة من كتب الارناؤط فانت ترى الى الشعب العربي في « فاطمة البتول » وقد تلخص نفسيته في اليمامة . ففي هذا الطائر من روحه لوعة الهوى وانسجام الاباء والرقة وفي الوان ريشه زرقة سمــائه وشدة بطشه وسذاجة قلبه . وترى الى الخندق من حول يثرب فاذا هو على ضيق رقعته « المهد الاول لوحــدة الشعب العربي بعد تطهير ارضه من كل رجس» . فاذا انتقلت الى « طارق بن زياد » اتسعت امامك قوة الرمز وانقلب هذا الفارس العربي الذي « يضرب الارض بقدمه كأنــه يضرب ماضي روما واثينة وقرطاجنة » خالق حضــارات ومربي شعوب ، ينقل مدنيته الفتية الى العالم مع ازهاره واثماره وتكــاد هذه الازهار والاثمار ، يكاد البرتقال والليمون والقرنفل والورد التي تملأ الكتاب بالعطور ، ان تصبح رمزاً لكل مــا في نفوس العرب ، مشعلا يحملهم وينتقل بهم الى اقاصي الكون لانهم « ثملوا بربيع عقبة فحبسوا انفسهم على الموت او يزهر الربيع في بقعة من هذه الارض . »

هذان كتابان للمطالعة . انهما رغم كل شيء قطعتان غاليتان بين آثار ادبنا التوجيهي . وان في هذه الاثار التي يغذيها المــاضي الحياة لنا وثروة في طريقنا الى المستقبل .

دمشق — زهير الحكيم

العرب الفكري والعلمي التي جلاها المؤلف الفاضل تذكرة لأولي البصائر ، مثبتاً ان لهذه الامة على حد قوله « كياناً معتبراً في عالم الاكتشاف والاختراع وانه بامكانها المساهمة في خدمة الانسانية . »

ولقد قال ويلز عن حضارة العرب ما يلي : « كانت طريقة العربي ان ينشد الحقيقة بكل استقامة وبساطة وان يجلوها بكل وضوح وتدقيق ، غير تارك منها شيئاً في ظل الابهام . فهذه الخاصة التي جاءتنا نحن الاوربيين من اليونان وهي نشدان النور انما جاءتنا عن طريق العرب . ومما لا شك فيه — وهو امر جاء هذا الكتاب معززاً صحته — ان الحضارة العربية هي حلقة الاتصال بين حضارة اليونان والحضارة الحالية . فالعرب هم الذين حفظوا علوم اليونان وغيرها من الضياع وهم الذين نقلوها ونقلوا معها — كما يقول المؤلف — اضافاتهم الكثيرة الى اوروبا عن طريق الاسبان .

وخلاصة القول ان هذا الكتاب النفيس يسد فراغا كبيراً في المكتبة العربية بل يصح عده « مرحلة اساسية سيكون لها بليغ اثر في تطور التفكير العلمي في البلاد العربية » .

فنشكر للمؤلف البحاثة صنيعه العلمي الجليل وللمقتطف الغراء هذه اليد البيضاء الجديدة التي تضيفها الى اياديها السالفة في خدمة العلم والثقافة .

والكتاب من القطع الكبير في ٢٦٧ صفحة .

التنبيه الى كتاب فريد جامع

للفيكونت فيليب دي طرازي

رسالة بقلم الدكتور بشر فارس

عني العلامة الكبير الفيكونت فيليب دي طرازي منشيء « دار الكتب الوطنية » في بيروت بوضع مؤلف قيم طريف في موضوعه عنوانه « خزائن الكتب العربية في الخافقين » . وقد اصبح كتابه هذا جاهزاً للطبع بعد ان استنفد في تأليفه وتصنيفه وجمع دقائقه خمس عشرة سنة . ويوم هبط بيروت في الخريف الاخير الاديب المحقق الموهوب الدكتور بشر فارس اتيح له الاطلاع الخاطف على محتويات الكتاب ، واستهواه وفر في المادة وكد وتبويب ، فبعث الى « الاديب » بكراس صغير اسماه « التنبيه الى كتاب فريد جامع » للفيكونت فيليب دي طرازي بقلم الدكتور بشر فارس ، بث فيه قراء العربية خلجات فكره وما اضفاه على نفسه كتاب الفيكونت من متاع ذهني ولذة انيقة ونحن نقتطف من هذه الدراسة المخلصة هاتين الفقرتين :

هو كتاب لا اعرف له اخاً في لغتنا : طريف المنحى ، غزير المادة ، موفور الفائدة ، ثم انه مرتب احسن ترتيب ، متناسق التبويب ، مشبع الفصول . واما اسلوبه فجامع للوضوح والاحكام وللسهولة والدقة . واعجب ما فيه ان ابوابه تنشق لتشتيت الفوائد ، وانت غافل عن ذلك ، وان اغراضه تتشعب في غير استكراه ، فتنتشر المسائل وتنتثر النوادر ، كأنها دار تلجها من باب مستدق ، فتقضي فيها بعض يوم تتنقل بين حجر غرائب بعضها الى بعض يقذف بك . ويقع الكتاب في مجلدين ضخمين ، ضم المؤلف بين مكاسرهما ، في تقص واستقراء الى جنب التمحيص والاستجلاء ، كل ما عثر عليه متفرقاً في تواليف المتقدمين والمتأخرين . وقد اثبت الوقائع في نزاهة وتحوط . كل رواية الى صاحبها مسندة ، وكل مادة الى مظنتها مرجوعة . واما المصادر المختلفة لغة وعهداً ولونا فتزيد على خمسمائة . وللكتاب بعد ذلك مسارد تستغرق وحدها مائتي صفحة كبيرة .

« ذلك هو الكتاب الذي وقع بين يدي بضع ساعات قبل تركاني بيروت الى القاهرة . وقد بلغ اعجابي به واكباري له مبلغاً لم ار معه منصرما عن ان اسوق امره الى قراء المقتطف . ومما ينبسط اليه املي ان يذيع هذا الكتاب في الناس وصاحبه بقيد الحياة . وما اظن حكومة الجمهورية اللبنانية بضانة عن النهوض بمثل هذا السعي ، فبه تشكر لواحد من رجالات لبنان الاشم بذله المتصل في سبيل قومه ، وانصرافه الى العلم البحت على مشقته ، وبذلك ايضاً تعلي من شأن العربية وتخدم آدابها وتنشر اثارها ، ثم تنول اهلها والمشتغلين بعلومها المرجع القويم النادر » .

« والاديب » تشارك الدكتور فارس اعجابه وتتمنى معه ان تعمد الحكومة الجليلة الى اخراج هذا الأثر الفريد خدمة لمكانة الثقافة العربية في لبنان . ص . ١ .

الاستاذ علي (1)

وهذه مجموعة جديدة للاستاذ احمد راسم ، صدرت بالقاهرة في العام ١٩٤٢ الحالي ، وهي تحتوي على قطع من الادب العالي تمشي في حلبة واحدة من الصياغة البيانية والتفكير السليم المقرون بالشعر والفلسفة . وما كانت الفلسفة الا اخت الشعر فهما لب الادب وجوهره ، ولا ادب بدون فلسفة وشعر . وقد يلتقي الشاعر راسم في طريقة تفكيره بالشاعر الفارسي الفيلسوف عمر الخيام ولكنه لا يلتقي بالشاعر العربي الفيلسوف المعري ، فهو يلازم التعبير الفلسفي الرمزي في قالب يشيع فيك اللذة والوجد . قال :

(1) Le petit libraire Oustaz Ali. Poème par Ahmed Rassim — aux éditions de la Semaine Egyptienne. Le Caire

الاحداث السياسية والحربية في شهر

نحن في الشهر الثاني عشر لحملة روسيا . ويكاد ينصرم الربيع والهجوم الالماني الكبير لم يبدأ الا في الجبهة الجنوبية من روسيا حيث الجيش الاحمر يواصل تقدمه في منطقة خركوف بعد ان استولى الجيش الالماني على منطقة كرتش . واذا نحن تتبعنا الانباء التي يذيعها الطرفان عن سير المعارك في الجبهة الشرقية يتضح لنا ان هذه الانباء من التناقض على جانب كبير . فالالمان يدعون ان معركة خركوف دخلت في مرحلتها الثانية مؤكدين ان الروس تحولوا الى الدفاع . ولكن المقامات الروسية المأذون لها تنفي هذه المزاعم نفياً جازماً مؤكـدة ان العمليات الهجومية السوفييتيـة مستمرة شطر ازيوم برفنكوفو حيث انزل الجيش الاحمر بالعدو خسائر فادحة جداً . ومما لا نزاع فيـه ان القوات الروسية هاجمت في الثالث والعشرين من نوار الجاري شطر ابزي خركرف وتمكنت بعد معارك طاحنة من احتلال ابزي التي جلا عنها الالمان في الواحد والعشرين منه . وفي منطقـة ازيوم برفنكوفو لم يتمكن الهجوم الالماني من التقدم في حين ان الهجوم الروسي على خركوف يساهم مساهمة كبيرة في تخريب احتياطي الجيش الهتلري ، وهو من اهم الاهداف التي يشخص اليهـا الجيش السوفييتي . وقد اضطرت القيادة الالمانية الى شن هجمات معاكسة كبرى من الدبابات منزلة احياناً الى ساحة القتال مقادير كبرى من السيارات المصفحة لا يرجع منها اكثر من نصفها في حالة مؤسفة . ومما يؤثر عن فرقة الدبابات الالمانية الثانية والعشرين التي جاءت من فرنسا الى الجبهة الشرقية انها اتلفت على بكرة ابيها في يوم واحد ويربي عددها على ٢٥٠ دبابة . وما يقال عن هذه الفرقة المصفحة يقال عن فرقة المشاة الـ ١٠١ التي افنيت على بكرة ابيها في منطقة ازيوم برفنكوفو . وصفوة القول ان الالمان يضطرون في الغالب الكثير الى التفريط في معداتهم ليحرزوا فوزاً محلياً كالذي احرزوه في كرتش . ويقول الروس ان الالمان ما يزالون قادرين على احراز تفوق موقت في هذه النقطة او في تلك ، وذلك بفضل مهارتهم في تنقيل العتاد والرجال ، ولكنهم فقدوا الوسائل اللازمة للسيطرة على مجموع الجبهة الروسية الواسعة النطاق .

في الباسيفيكي اما في جبهة المحيط الهادى، فقـد انزل الاسطول الاميركاني في بحر المرجان فشلا ذريعاً بالاسطول الياباني في معركة كبرى مني فيها الطرفان بخسائر واسفرت عن هرب الاسطول الياباني . وقد اعد الحلفاء العدة الكافية للدفاع عن استراليا التي ارسلت اليها الولايات المتحدة مقادير كبرى من القوات البرية والجوية . واذا كان الشهر المنصرم شديد الوطأة على الحلفاء في برمانيا فالخسائر التي مني بها اليابانيون لا تقل اهمية عن البقاع التي استولوا عليها . هذا الى ان الولايات المتحدة بدأت تفكر جدياً في انشاء جبهة ثانية في اوروبا واستخدام قواعد سيبيريا لضرب طوكيو عاصمة اليابان . ولذلك يبذل اليابانيون مساعي كبيرة للاستيلاء على البقاع الصينية التي يعتقدون ان الحلفاء يستطيعون استخدامها لاطلاق طائراتهم على اليابان . اما الروس الذين يخوضون معتركاً هائلا مع الالمان فيشترطون على الولايات المتحدة ان تفتح جبهة ثانية في اوروبا اذا هي طلبت القواعد الروسية في سيبيريا . ولا شك في ان القضية ستبت في الاسابيع المقبلة .

في ميدان السياسة وفي الثلث الاول من الشهر المنصرم وجـه الرئيس تشرشل الى الشعوب المتحدة خطاباً المع فيه الى المستقبـل بتفاؤل عظيم ، واعرب عن اغتباطه الكبير بالروح الهجومي البادي من جهتي الاطلنطيقي مشيراً الى ان موقف الالوف من الفرنسيين الذين عضدوا القوات البريطانية في اثناء غزوتها سان نازير كان مظهراً من مظاهر الرغبة في التحرر التي تضطرم في فرنسا واوروبا . ومما لا شك فيه ان خطاب تشرشل كان ابلغ خطاب لفظـه الرئيس البريطاني من حيث قوة الامل في النصر .

وفي العشرين من الشهر المنصرم اقيمت في مجلس العموم البريطاني مناقشات حول الموقف العسكري سادتها موجة من التفاؤل العظيم . وقد دارت المناقشات حول الهجوم الضخم الذي ينوي الحلفاء شنه على المانيا توطئة لفتح الجبهة الاوروبية الثانية .

ومعلوم ان الحكومة المكسيكية انذرت المحور باعلان الحرب عليه اذا هو لم يعوض عن اغراق احدى بواخرها البترولية . ولما لم يكن جواب المحور مرضياً فقد طلبت من البرلمان اعلان الحرب على المحور . وتؤكد المقامات العليمة ان المكسيك ستجرد جيش حملة يعمل في جبهات الشعوب المتحدة حالما يتم اعلان الحرب وستطلب قبولها عضواً في مجلس حرب الشعوب المتحدة .